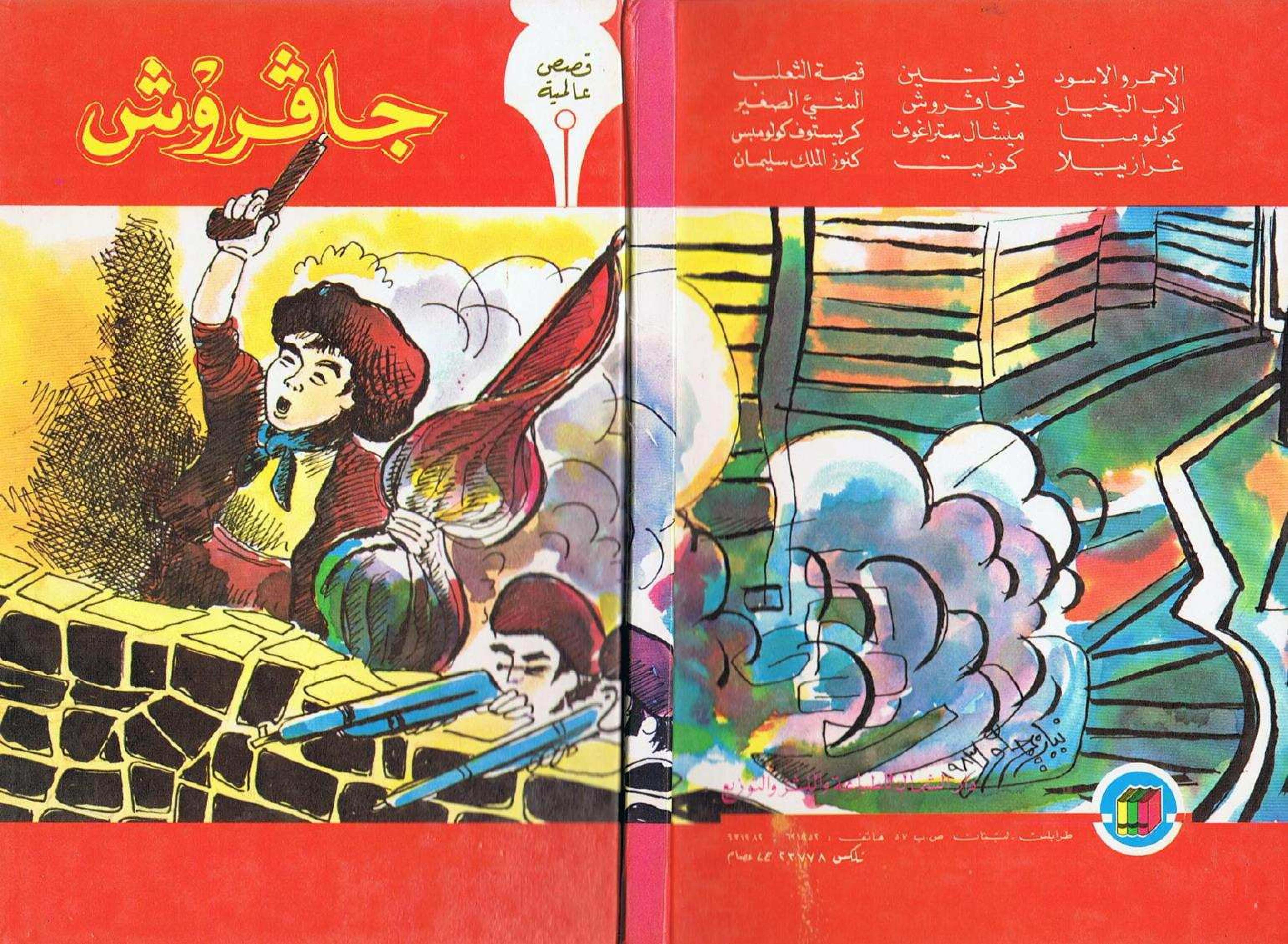

قصص عالمية
جافروش
الاحمر والاسود فونتين قصة الثعلب
الاب البخيل جافروش الشيء الصغير
كولومبا ميشال ستراغوف كريستوف كولومبس
غرازييلا كوزيت كنوز الملك سليمان
دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس - لبنان ص.ب ٥٧ هاتف
تلكس ٢٣٧٧٨

مِن سِلسِلَة البؤسَاء

"چاڤروش"

تأليف الكاتب الفرنسي الكبير

ڤيكتور هيغو

أشرَفَ على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة وتصحيح

سيف الدّين الخطيب

چاڤروش

خلاصة الجزأين الأوّلين

جان فالجان عاملٌ شابٌ يُعيلُ ثمانيةَ أطفال، سرق رغيفاً في شتاءٍ كان فيه عاطلاً عن العمل، فحكمَ عليه بالسّجنِ خمس سنواتٍ وأُرسلَ إلى طولون. حاولَ الهرب كبقيّةِ السّجناء، فحُكمَ عليه مجُدّداً. خرجَ من السجن بعد تسعة عشر عاماً. وفيما بعد وتحت إسم السيد مادلين، كسبَ مالاً كثيراً. ساعدَ عجوزا يُدعى فوشليفان وصبيّةً فقيرةً تدعى فانتين ماتتْ بعد ذلك. لكنّه كي يُنقذ عجوزاً كان سيُسجنُ مكانَه، استعارَ إسمَ جان فالجان فحكم عليه بالسّجن المؤبّد وأُعيدَ إلى طولون.

وقبلَ اعتقالِه تمكّن من إخفاء المال الذي كسبَه. هربَ مرّةً أُخرى فاستعادهُ وذهبَ إلى مونفارماي حيثُ انتزعَ طفلةً صغيرةً في الخامسةِ من عُمرها تُدعى كوزيت (وهي ابنة فانتين) من جماعة أشرارٍ هم آل تيناردييه كانوا يضربونَها ويُكرهونَها على العملِ كشخصٍ كبير.

عثر جافير وهو الشرطي الذي اعتقلَ جان فالجان على هذا الأخير فهربَ منه في اللّيلِ حاملاً كوزيت على ظهره، ونجح في دخولِ حديقةِ راهبات. وهناكَ عثَرَ على فوشليفان الذي وظّفه هناك.

قدّمه فوشليفان على أنّه أخوه فعَمِلَ جان فالجان معَه وربّتِ الرّاهبات كوزيت. لكنّ فوشليفان العجوز ماتَ بعد خمسِ سنواتٍ فتركَ جان فالجان عملَه وذهبَ للعيشِ في المدينة.



شيء من التاريخ لفهم جافروش.

١٧٨٩ : بدايةُ الثورة الفرنسية.

١٨٠٤ : نابوليون يُصبح أمبراطوراً للفرنسيين.

١٨١٤ : نابوليون المهزوم يُرسلُ إلى جزيرة إلبا.

١٨١٥ : نابوليون يعود من جزيرة إلبا ويستعيد السلطة لكّنه يهُزم في واترلو ويُرسلُ إلى جزيرة القديسة هيلانة.

١٨١٥ ـ ١٨٢٣ : لويس الثامن عشر ملك على فرنسا.

١٨٢٣ : شارل العاشر ـ يحلُّ محلَّ أخيه لويس الثامن عشر.

١٨٣٠ : ثورةُ تطردُ شارل العاشر فيحلّ محلّه لويس فيليب. لكن شعب باريس يحُاول أن يثور ثانية في عام ١٨٣٢.

تبدأُ قصةُ جافروش بمعركة واترلو وتنتهي بعد تمّرد عام ١٨٣٢.

في حزيران ١٨١٥، اجتمع فِي بلجيكا جيشٌ إنـكليزيٌ بقيادةِ الجنرال ولنفتون وجيش بروسي (يُدعى أحياناً ألمانياً) بإمرةِ الجنرال بلـوشر. هاجمهُما نابـوليون قصدَ الانـكليز ولنفتون إلى محلّة الأذرعة الأربعة ثم تغلّب على بروسّيي بلوشر في ليني. افترق الجيشان المُتحالفان فأَرسلَ نابوليون قسماً من جيوشِهِ بإمرة الجنرال غروشي لِمُطاردةِ بلوشر وأصدر إليه الأمرَ بمنعه من الإنضمام إلى ولنفتون. ثمّ ارتدَّ إلى ولنفتون الـذي كان ينتظرُ على هضبةِ جبل القديس يوحنا، وذلك بهدفِ تدميرِ الجيش الانكليزي. وأرسلَ إلى غروشي أمراً بمُهاجمةِ الإنكليز من الخلف.

هجوم الفرسَان

رغم تَعبِ عشرينَ سنة من الحربِ، ورغمَ مرضـه، بقي نابـوليون إلَه المعـارك. فكان كلّ ما قرّره لِقهـر الإنـكليز والبروسيين حسناً: الذّهاب رأساً إلى قلبِ خطّ العدوّ وقطعه إلى قسمين ثم دَفْعِ الألمان إلى اليمـين والإنـكليز إلى اليسـار فانتزاعُ هضبةِ جبلِ القدّيسِ يُوحنا حيث سينتظرهُ الإنـكليز بالتّأكيد وبعد ذلكَ الإستيلاء على بروكسيل وإلقاء الألمان في نهـر الـرين والإنـكليز في البحـر. ذلكَ ما أراد نابـوليون أنْ يفعلَه. وبعد ذلك يرى. . .

غير أنّه لسوءِ الحظ عندما وصلَ الجيشُ الفرنسي أمامَ هضبةِ جبل القديس يوحنا كان الطّقسُ مُمطراً ولم يكنْ بالمستطاع بدءُ المعركةِ ضدَّ الإنكليز قبلَ الحـادية عشرة والنّصف صباحـاً. وهكذا سَيُتاحُ للبروسيين وقتاً للوصول.

يعـرفُ الجميعُ بداية هذه المعـركة. . . فحـوالي السّاعـة

الرابعةِ لم يكن هناكَ مَنْ يُقاوم سوى الوسط الإنكليزي فتلقّى فرسانُ الجنرال ميلهو الذين يبلغ عددُهم الثلاثة آلاف وخمسماية الأمرَ بالهجوم.

إنحدر الفُرسان إلى أسفلِ الوادي الذي سقط فيه رجالٌ كثيرون بحركةٍ واحدة وكرَجُلٍ واحد. حَجَبهم الدّخانُ عن الأبصار ثم خرجوا منه وعادوا للظّهورِ في الجهةِ الأُخرى من الوادي، مُتراصّين يصعدون بمُنتهى السرعة خلالَ غيمة من الرّصاص والقذائف. كانوا يسيرون مُطمئنين، واثقين من أنفسهم وسطَ ضجّة تصمّ الآذان وكان صياح الجيش الأيمن بقيادة الجنرال راتييه والأيسر بإمرة ديلور، ومن بعيد كان يُخيّل للمرء أنّه يرى ثعبانيْن من الحديد يعبران ميدانَ المعركة.

وفوقهم كان خمسة وثلاثون ألف جندي إنكليزي ينتظرونَ في ظلّ مدافعهم المصفوفة بشكلِ مربعات تمتدّ على خطّين وبطولِ ميليْنِ لكلّ مربّع، وقد تنكّبوا سلاحَهم واستعدوا لإطلاقِ النّارِ بهدوءٍ وصمت. إنهّم لا يرونَ الفرسان ولا يراهم هؤلاء وهم يصغون إلى صعود ذلك البحر من البشر، ويَسمعون جلبةَ ثلاثة آلاف جواد بالإضافة إلى ما يُشبه التنفّسَ الكبيرَ المكتوم.

ران صمتٌ ثم ظهرتْ فجأةً غابةٌ من الأذرعة المرفوعة فوقَ

حافّةِ الهضبة ولمعتِ السيوفُ وصاحتْ ثلاثةُ آلاف رأسٍ مُغطّاة بالشّعر الرمادي: «عاشَ الامبراطور.»

وَلَجَ كُلُّ هؤلاء الفُرسانِ الهضبةَ مُحدثينَ ما يُشبه الزلزال.

لكن في هذه اللّحظةِ وعلى يسارِ الإنكليز ويمين الفرنسيين صادفت الجيادُ الأُولى طريقاً أجوفَ عمقُه أربعةَ أمتار لم يكن باستطاعة أحدٍ أنْ يراه.

كانتِ اللّحظةُ مُخيفة، حاولتِ الجيادُ التوقّف فدفعَ الصفُّ الثاني الصفَّ الأوّل والثالثُ الثاني. تراجعتِ الجيادُ فوقعتْ إذ لم تكُن هناك أيّة وسيلةٍ للتّراجع. وهكذا فإنّ القوّةَ المُعدة لسحق الإنكليز سحقتِ الفرنسيين. تدحرج الفرسانُ والجيادُ معاً واختلطوا ببعضهم البعض، وعندما امتلأتِ الحفرةُ بالرّجالِ الأحياءِ مشى الباقون فوقَهم ومرّوا.

في نفسِ الوقت بدأ ستّون مدفعاً وثلاثة عشرَ مربعاً بإطلاق النّار على الفرسان، فلم يتوقّف هؤلاء ولم يفقدوا شجاعتَهم. إنهّم رجالٌ يَسْمونَ فوقَ المصيبة.

لم يختفِ سوى واتييه ورجاله. أمّا فرسانُ ديلورد فقدِ انعطفوا إلى اليسار وهاجموا المربعات الإنكليزية.

هاجمَ الفرسانُ وبطونُ جيادِهم تكادُ تلامسُ الأرضَ

وأسلحتهُم بين أسنانِهِم، فلم يتراجع الإنكليز وتلقى الصفّ الأوّل من الجنودِ الفرسان وركبتُهم على الأرض.

أطلقَ الصف الثاني النّارَ وحشا وراءَه المدفعيّون مدافعَهم. عندها انفرجتِ المربعات لتمريرِ القذائف ثم أُغلقتْ، فردّ الفرسانُ بالسّحق. قفزتْ جيادُهم الكبيرةُ فوقَ الصّفوفِ وسقطت وسطَ تلكَ الجدرانِ الأربعةِ الحيّة، فأحدثَت القذائفُ ثغراتٍ في صُفُوفهم وأحدثوا هُمْ بدورهم ثغراتٍ في المربعات.

اختفتْ مجموعاتٌ من الرّجالِ سحقتْها الجياد، وتراصّتِ الصفوفُ في كلّ مربع. كان الفرسانُ قليلي العدد، وقد تناقَص عددهُم منذُ عبورِ طريقِ «أوهان» وكان في مُواجهتهم كلُّ الجيشِ الإنكليزي تقريباً، لكنّ كلَّ فردٍ منهم كان يُعادلُ عشرة. أخذتْ بعضُ الفِرَقِ تهربُ فرآها ولنجتون وقذف بفرسانِهِ في المعركة.

هُوجمَ الفرنسيّون مُواجهةً ومن الطّرف، من الأمام ومن الخلف فكان عليهم أنْ يُواجهوا العدوّ من كلّ جانب. لم تعدِ القضيةُ قضيّةَ التحام بل أصبحتْ عاصفةً من النّفوس والشّجاعات وبريق الأسلحة. انتُزعتْ هضبةُ جبلِ القديس يوحنا ثُمّ أُعيدَ الإستيلاءُ عليها وانْتزعتْ من جديد. شنَّ

الفرنسيّون إثْني عشر هجوماً، وقُتلتْ أربعةُ جيادٍ تحت «ناي». وانتُزعتْ ستُّ راياتٍ حُملتْ إلى الامبراطور أمامَ مزرعةِ «بل اليانس». وهكذا أُصيبَ الجيشُ الانكليزي بجرحٍ بالغ وشعر ولنفتون أنّه قد هُزِم تقريباً. ومع ذلك فان الفرسان لم يكونوا قد ربحوا المعركة، فلقد ماتَ منهم ما يربو على الألفيْن من أصلِ ثلاثةِ آلاف وخمس مئة، وكان وسط العدوّ لا يزالُ يُقاوم ومعظمُ أجزاء الهضبةِ في يدِ الانكليز. ورغمَ ذلك فقد كانت اصابة الجيشِ الانكليزي أبلغ إذ دمّر الفرسانُ الجنودَ ولم يبقَ من كلّ مربع سوى رجالٍ يركضون. فقدَ ولنفتون فرسانَه ولم يبق للجيش الإنكليزي - الهولندي سوى أربعة وثلاثين ألف رجل. عندها اعتقدَ مُشاهدان أجنبيّان أحدهُما إسباني والآخر نمساوي أنَّ ولنفتون قد خسرَ. وعند السّاعةِ الخامسة أخرج هذا الأخير ساعتَه وسُمع وهو يقول: «بلوشر أو الليل!»

عندئذٍ ظهرخطٌ قاتمٌ على المرتفعات من جهةِ «فريشمونت» فابتهج نابوليون وقال: «إنّه غروشي . . » لكنّه لسوءِ الحظ كان بلوشر.

الحرسُ يموتُ ولا يستسلِم

ألبقيّةُ معروفة: وصولُ الجيشِ البروسي فصدُّ الفرنسيين، فاستئنافُ معركةٍ جديدة عندَ حُلول الليل، فاندفاعُ الجيش الإنكليزي إلى الامام، ثمّ اختراق الجيش الفرنسي فإطلاقُ النّار من المدافع الانكليزية والبروسيةِ في وقتٍ واحد.

عندئذٍ تقدّم الحرسُ الذي كان يُشكّلُ الأمَلَ الأخير. ولِشعوره بأنّه سيموت، صاح: «عاشَ الامبراطور!» فكانتْ صيحاتُ حبٍّ وسطَ الهزيمة، لم يُسجّلِ التّاريخُ لها مثيلاً.

بقيتِ السّماءُ مُلبدةً طيلةَ النّهار، وفجأةً عندَ السّاعةِ الثامنة مساءً انقشعتِ الغيومُ ونفذ منها خلال أشجار طريق «نيفال» إحمرارُ شمسِ المغيبِ الحزين، بعد أنْ رأينا شروقها في أوسترليتز.

كانتْ كُلّ مجموعةٍ من الحرس بإمرة لواء، وعندما ظهرَ أولئكَ الرّجال، ظنّ العدو أنّه يرى في هدوئهم وجمالهم

وانعدام غضبهم عشرين انتصاراً تلجُ ساحةَ المعركة، فتراجعَ المتصرونَ لحظةً، لكن الجنودَ الحمرَ المُختبئينَ بين القمح نهضوا فانهمر وابلٌ من الرّصاص على العَلَمِ المثلّثِ الألوان وبدأتِ المعركةُ الأخيرة.

شعرَ حرسُ الامبراطور بالجيش يذُوب حوله في الظّلام وسمِعَ عبارةَ «لِيَهرُبْ مَنْ يستطيعُ الهرب» التي حلّتْ محلّ عبارةِ «عاش الامبراطور»، لكنّه تابعَ التقدُّمَ وعدده يتناقصُ شيئاً فشيئاً، والموتى يتساقطون في كلّ خُطوة يخطوها. إلاّ أنّ أحداً لم يتراجع.

أمّا «ناي»، ذلك العظيم بين أشدِّ الرجال عظمةً، فقد كان يُعرِّضُ نفسَه لكلِّ الضربات، وعيناهُ تقذفانِ الشرّر، وهو مفكوكُ الأزرار، دامٍ، جميل، مكسور السيف وقد مُزقتْ سترتُه وأُصيبَ برصاصةٍ في فخذه. كان يقول: «تعالوا لِترَوا كيف يموتُ ماريشال فرنسا».

كان الجيشُ ينثني وراءَ الحرس من كلّ الجهاتِ في وقتٍ واحد، فيتراجعُ كلُّ شيءٍ ويتدحرجُ ويقع. أمرَ «ناي» أنْ يُؤتى له بجوادٍ آخر فقفز عليه دون قُبّعة مُمزّقَ الثياب واعترضَ طريق بروكسل مُوقفاً الإنكليزَ والفرنسيّين في نفسِ الوقت. كان

يُحاولُ إيقافَ الجيش واستدعاءَه. لكنّ جنودَه كانوا يفرّون وهم يَصيحون: «عاشَ ناي».

بذلَ نابوليون جهداً أخيراً بما تبقّى له من الحرس، فعدا وراءَ رجالِه يُناديهم ويرجوهم. لكنّ كلَّ تلك الأفواه التي كانتْ تصيحُ في الصباح: «عاشَ الامبراطور» بقيتْ صامتةً ولم تتعرف عليه إلاّ بصعوبة. انطلقَ الفُرسان البروسيون القادمون حديثاً وطاروا وهم يَقطعون ويَقتلون. وفرّتْ جيادُ بالمدافعِ وسقطَ رجالٌ وقفزَ آخرون إلى الأحصنةِ الرّاكضة، فسحقَ بعضهُم البعضَ الآخر وداسوا على الأموات والأحياء فغصّت الطّرقاتُ والدّروبُ والجسورُ والسّهولُ والأوديةُ والغاباتُ بأربعين ألفَ رجل، ولم تكُن تُسمع سوى صيحات اليأس ولا تُرى سوى المَحافظ والأسلحة مُلقاةً بين القمح. لم يعُد هناكَ رفاقٌ أو قوّادٌ بل حلّ محلّها الخوف.

في «جيناب» جرتْ مُحاولةٌ للتوقف والمواجهة لكنّ الفرارَ بدأ من جديد. عبرَ المهزومون الأذرعةَ الاربعة وتوين، ومَنْ ذا الذي كان يركض هكذا؟ إنّه بكلٍّ أسف الجيش الكبير.

عند هُبوط الظّلام وفي أحد الحقول قرب «خُباب» أوقفَ اللّواءان برنار وبرتران رجلاً عابساً مُفكراً نزلَ عن صهوة

جواده وجرّه وراءه عائداً باتّجاه واترلو والجنونُ بادٍ في عينيْه. إنّه نابوليون يُحاول ثانيةً أنْ يتقدّمَ إلى الامام...

صمدتْ بعضُ مربعات الحرس كالرّواي حتى الليل. وعندما حلّ اللّيلُ وحلّ الموتُ معه، كانتْ تنتظرُ تلكَ الظّلمات لتلتفّ بها. وهكذا ماتتْ كلُّ مجموعةٍ لوحدها مُنفصلةً عن الأُخرى وعن الجيش.

وحوالي السّاعة التاسعة مساءً لم تبقَ سوى مجموعة واحدة عند اسفل هضبة جبل القديس يوحنا.

في ذلك الوادي، وعند سفْحِ ذلِكَ المنحَدر الذي ارتقاهُ الفرسانُ الثقال والمُغطّى الآن بالجنود الإنكليز، وتحت نيران المدافع المُعادية، كان ذلك المربع لا يزالُ يُقاتلُ بامرة اللواء كامبرون. وعند كلّ طلقةِ مدفع، كان المربعُ يرصّ جدرانَه الأربعة.

عندما أصبحَ عددُهم لا يتجاوزُ البضعةَ رجالٍ وتحوّل علمهُم إلى خرقة، وعندما أصبحتْ أسلحتهُم عبارةً عن عصيٍّ وتعدّى علوُّ كومةِ الأموات علوَّ كومةِ الأحياءِ سرى في نفوسِ المُنتصرين ما يُشبه الخوفَ حول أولئكَ المُحتضرين. أمّا هم فلم يكونوا يروْا سوى جيادٍ ورِجالٍ ومَدافع. سمعوا حشْو المدافع للمرةِ الأخيرة ثم صاحَ بهم لواءٌ إنكليزيٌّ قبل إطلاق

النار: «أيها الفرنسيون إستسلموا.» فأجابَ كامبرون بالرّفض.

من بين كلّ جنود واترلو. سنخصّ كامبرون بالمقام الأول، فالرّجل الذي ربحَ معركة واترلو لم يكن نابوليون ولا لنفتون المُتراجع عند السّاعةِ الرابعةِ واليانس عند الساعةِ الخامسة، ولم يكنْ بلوشر الذي لم يُقاتل. إنّ رابحَ معركة واترلو هو كامبرون. فإلقاء هذا الجواب ليلاً في طريق أوهان الأجوف، والبقاء صامداً بعد سقوطِ الآخرين، واستمالةُ التّاريخ إلى جانبهِ بعد تلك المجزرة، ذلك هُوَ ما فعَله كامبرون.

لقد كان هناك، ملوك أوروبا كلهم، والقوّادُ السّعداء. كان لديْهم مئةُ ألف جُنديٍّ مُنتصرٍ ووراءَهم مليون. كانتْ مدافعُهم جاهزةً ومُسلّطةً على حرسِ الامبراطور وعلى الجيشِ العظيم. إنهّم قد سمعوا نابوليون فلم يبقَ سوى كامبرون يُقاومهم.

عندئذٍ بحثَ عن كلمةٍ كما يبحثُ المرءُ عن سلاح فوجدَ تلكَ الكلمة. وأمامَ انتصارِ الحظّ على الذّكاء، أمامَ ذلكَ الإِنتصار من غير مُنتصرين، بقيَ ذلكَ اليائسُ واقفاً وتحتَ ضَغطِ العدوِ والقتلِ والقوّةِ قال أيضاً: لا. فقولُها والعثورُ على مثلِ هذا الجوابِ جعل منه المُنتصر.

أجابَ الصوتُ الإنكليزي على كلمةِ كامبرون: «النار!» فتوهّجتِ المدافعُ وبدتِ الأرضُ وكأنّها تنشقُّ وانعقدَ دُخانٌ كثيفٌ بيّضَه طلوعُ القمر. وعندما بزغَ لم يَعُدْ هناكَ سوى جسم واحد يتحرّك. وهكذا انتهى الجيشُ العظيم الذي فاقَ جُيوشَ روما عظمةً في جبل القديسِ يوحنا على الارض التي روتْها الأمطارُ والدّماءُ بين سنابلِ القمح القائمِة.

ميدان المعركة في الليل

للحرب جمالُها وبشاعاتُها وسرقةُ الموتى هي إحدى هذه البشاعات. فبعدَ المُنتصرين يأتي السّارقون، ويطلعُ فجرُ اليوم التالي للمعركة على أجسامٍ دون ملابس.

في حواليْ مُنتصف الليل، كان رجلٌ يختبيءُ من جهةِ طريق أوهان الأجوف. لم يكُن لا إنكليزياً ولا فرنسياً ولا فلاّحاً ولا جُنديّاً، بل كان يبحثُ عن الموتى ويُقلّبهم. كان يتقدّم إلى الأمام وينظرُ إلى الخلف، فَمَنْ هو ذلك الرجل؟ لم يكنْ يحملُ كيساً بل جيوباً عريضةً تحتَ سُترته. ومن وقتٍ لآخر كان يتوقّفُ فيتطلّع إلى السّهلِ حوله ثم ينحني ويُحرِّكُ شيئاً على الأرضِ ثمّ يبتعد.

توقّفَ هذه المرّة أيضاً، فعلى بُعدِ بضعِ خُطواتٍ أمامَه في الطريق، وفي النّقطةِ التي تنتهي عندها كومةُ الأموات، خرجتْ يدٌ مفتوحةٌ من تحتِ كومةِ الرّجالِ والجياد، يدٌ أضاءَها

القمر. كان في أحدِ أصابع تلك اليد شيءٌ ذهبيٌّ يلمع. انحنى الرّجُل وبقي هكذا لحظةً، وبعد قليلٍ لم يبقَ ذهبٌ في اليد.

استدارَ وأراد النُّهوضَ فشعرَ بِمَن يُمسكُه من الخلف. استدارَ مُجدداً فرأى اليدَ مفتوحةً وقد أطبقتْ على أسفلِ سُترته فأمْسكتْ به.

لو كان رجلٌ آخر مَكانَه لتملّكه الخَوفُ، لكنّه هو أخذ يضحكُ قائلاً: ليسَ هذا سوى الميّت، وهو أفضلُ من دركي . . . فهل هو حيٌّ، هذا الميّت؟ لِنَر إذن!»

انحنى ثانيةً ووضعَ يديْه في كومةِ الأجسادِ، ثم أخذَ اليد وأفسحَ مكاناً للرّأس وسحبَ جسمَ الرّجل إليه. إنّه ضابطٌ يلمعُ الذّهبُ على سُترته وقد أُصيبَ إصابةً مُخيفةً فغطّى الدّمُ وجهَه. وشاءَ حظُّهُ المدهش أنْ يَحُولَ الموتى الآخرون بينه وبين سحقِ الجياد له. أمّا عيناه فكانتَا مُغمضتيْن.

كان على صدرِه وسامٌ فضيٌّ انتزَعهُ الرّجلُ ووضعَه في إحدى جُيوبه، بعد ذلك عثَرَ على ساعةٍ فأخذَها ثمّ على بعضِ القطعِ الذهبيّة التي استولى عليها أيضاً.

فتحَ الضّابطُ عندئذٍ عينيْه فقد أيقظُها برودُ اللّيلِ وحريّة تنفّس الهواء، وقال بصوتٍ خافت: «شكراً». لم يجبِ الرجل

بل رفعَ رأسَه فسمعَ وقعَ خُطوات دركيّين أو جنود في السهل. قال الجريحُ بصوتٍ جدّ مُنخفض:

ـ مَن الذي ربحَ المعركة؟

ـ ألإنكليز.

ـ إبحثْ في جيبي وستجدُ بعضَ الذّهب وساعةً فخذْهما

تظاهرَ الرّجلُ بالطّاعة وقال:

ـ لا يوجدُ شيء.

ـ لقد سُرِقتْ. إنها كانت تؤُول إليك.

عندئذٍ قال الرّجلُ وهو يتظاهرُ بالإنصراف: «هُناكَ مَنْ هو آت»

رفعَ الفارس ذراعه بجهدٍ وأمسكَ به قائلاً: «لقد أنقذتَ حياتي، فمن أنت؟

ـ كنتُ مثلك في عدادِ الجيشِ الفرنسي وعليَّ الآن أنْ أتركَكَ فلا أُريد أنْ أقعَ في الأسر. تدبّر أمرَكَ الآن لوحدِك.

ـ ما اسمُك؟

ـ تيناردييه.

ـ لن أنسى هذا الإسم. أمَّا أنتَ فتذكَّر أنّني أُدعى «بونمارسي».



بونمارسي

كان بونمارسي رجلاً شجاعاً يُقاتل منذُ خمسة وعشرينَ عاماً من أجلِ الجمهورية ومن أجل فرنسا. لقدِ اشتركَ في كلّ المعارك من فالمي إلى أوسترليتز، وفي فريدلاند وواجرام ومونتميراي، فجُرح عشرينَ مرّة. وفي واترلو غنِمَ وهو على رأسِ فرسانِه علَماً إنكليزياً ألقى به عند قدميْ نابوليون فصاح به الامبراطور: «إنّك كولونيل وبارون».

ثم هجمَ على رأسِ رجالِه فسقطَ في طريق أوهان الأجوف والبقيّةُ معروفة.

لم يمتْ وعندما عاد إلى فرنسا عام ١٨١٦ ليعلمَ أنّ حكومةَ لويس الثامن عشر رفضتْ أن تمنحه رتبةَ كولونيل ولقبَ بارون وأنّه فقير، وليجد أنّ زوجتَه قد ماتتْ.

كانَ حموهُ السيد جيللنورماند رجلاً عجوزاً ثريّاً، بقيَ ملكياً بعد سنة ١٧٨٩، ويكرَه كُلّ الذين خدموا الجمهورية

والامبراطورية. لذا فلم يشأ أبداً أنْ يعترفَ بزواجِ ابنتِه الأولى (وكان لديْه اثنتان) من جنديٍّ جمهوري، وكان يُطلق على بونمارسي إسم «قاطع الطريق» ويرفضُ أنْ يتركَ كلَّ ماله لذلك الحفيد إذا لم يُحاول الأب أن يلقاهُ أبداً؟

كان الكولونيل البارون دي بونمارسي فقيراً أنهكتهُ المعاركُ وأكثر من عشرينَ جُرحاً، فَقَبِلَ بذلك لمصلحةِ الولد وعاشَ وحيداً في فرنون، في بيتٍ صغيرٍ وسطَ الزّهور، يُفكّر بالأعمالِ العظيمةِ التي قام بها وبذلك الولدِ الذي يُحبّه. وغالباً ما كان يذهبُ لرؤيته من بعيدٍ في الكنيسة لكنّه لم يحنثْ بالوعد الذي قَطَعَهُ بألاّ يتحدّث إليه أبداً.

كان الولدُ ماريوس يعلمُ أنّ له أباً هو «قاطع طريق» جمهوري، لكنّه يعلمُ عنه أكثرَ من ذلك. أمّا السيد جيللينورماند فلم يُوجّه أبداً لحفيده كلمةً لطيفةً بل كان يكلّمه بقسوة. لكنه كان يُحبّه وكان الطّفلُ كُلّ شيءٍ بالنّسبةِ له.

مرضَ بونمارسي فاستدعى ولدَه، لكنّ ماريوس وجد والده ميتاً وسُلّمت إليه ورقةٌ كتبَ عليها: «لابني: لقد جعلَ منّي الامبراطور باروناً في معركةِ واترلو ودفعتُ ثمنَ هذا اللّقب من دَمي. إنّ ولدي سيأخذُه وسيحملُه. وفي هذه المعركةِ

نفسِها أنقذَ رجلٌ حياتي. هذا الرّجلُ يُدعى تيناردييه. أعتقدُ أنّه في المرّةِ الأخيرةِ كان يُديرُ نزْلاً صغيراً في ضواحيباريس، في «شيل» أو في مونغارماي. فإذا لَقِيَهُ ولدي فسيُقدّمُ له كلَّ ما يَستطيعُه من خيرْ.»

عادَ ماريوس إلى باريس وتابعَ دراسةَ الحقوق، فنسَي والدَه تماماً. لكنّه لقيَ بعد مُدّةٍ وجيزةٍ كاهناً قصَّ عليه كَمْ كان ذلكَ الوالدُ يحُبّه، وكيفَ كان يأتي لِرؤْيته من بعيدٍ كلَّ خمسة عشر يوماً وذلك لسنينَ عديدة. أدركَ ماريوس عندئذٍ أنّ جدَّه قد أخفى عنه الحقيقة.

بحثَ ذلك الملكي الشاب حينئذٍ في الماضي فَعَلِمَ أنَّ أباه لم يكن قاطعَ طريق بل بطلاً عثرَ على اسمه في كلِّ صفحةٍ من تاريخ جيش نابوليون العظيم. إذ ذاكَ وُلِدَ في داخِله حبٌّ كبيرٌ وأصبح جمهورياً.

عِلِمَ الجدّ بالامرِ وعثرَ على رسالةِ بونمارسي لابنه فسألَ ماريوس وهو يُلقي بالرّسالة إلى النّار: «ما معنى هذا؟»

أجابَ الشاب: «معنى هذا أنّني ابنُ أبي.»

ضحكَ السيد جيللينورماند الذي بلغَ الثّمانينَ من العمر وقال بقسوة: «أبوكَ هُوَ أنا.» أجابَ ماريوس خافضَ

العينيْن: «لقد كان أبي رجلاً بسيطاً وشجاعاً. إنّه بطلٌ خدمَ الجمهوريّة وفرنسا، غنمَ رايتيْن. وأُصيبَ بعشرينَ جُرحاً ثم ماتَ مَنْسياً ولم يرتكبْ سوى غلطة واحدة هي أنّه أحبّ بلدَه وابنَه أكثرَ ممّا ينبغي.»

نهضَ السيد جيللينورماند عندَ سماعِه كلمة «جمهورية»، وربّما كان من الأفضل أنْ نقولَ أنّه ارتمى واقفاً إذ كانتْ كُلُّ كلمةٍ من كلماتِ ماريوس حديداً كاوياً بالنّسبة للملكي العجوز. صاحَ: «يا ماريوس، أيُّها الولدُ المرعب، إنّني لا أعلم ولا أُريد أنْ أعلَم ماذا كان أبوك. لكنْ ما أعلمهُ هو أنّه لم يكنْ هناكَ سوى المُجرمينَ وسطَ كُلِّ أولئكَ النّاس، وأقولُ كلّهم كلّهم. هل تسمعْ يا ماريوس؟ وهل ترى جيداً؟ إنّكَ بارون كجوزني. لقد كانوا كلّهم قطّاع طرقٍ أولئكَ الذين خَدموا الجمهورية وبونابارت. لقد انهزموا أمامَ البيروسيين والإنكليز في واترلو. هاكَ ما أعرفُه. فإذا كان السيدُ والدُكَ منهم، فأنا لا أستطيعُ أنْ أفعلَ شيئاً.»

بينما كان الرّجُل العجوز يتحدّث، كان ماريوس يرتجفُ ولا يعرفُ ما سيصير إليه أمرُه. كانتْ رأسُه تشتعل، فما العمل؟ لقد أُهين والدُه ومن قِبلِ مَنْ؟ من جدّه لكنّه لا

يستطيعُ تركَه يتكلّم دون أنْ يرد. وعندئذٍ صاح: «لِيَسقط الملوك!»

تغيّر لونُ العجوزِ من الاحمرار إلى بياضٍ يفوقُ بياضَ شعرِه. ثمّ انتقل مرّتيْن ببطءٍ وسكون من الموقدة إلى النّافذة ومن النّافذةِ إلى الموقدة مجتازاً كاملَ القاعة ومُحدثاً بعضَ الصّوت فوقَ الأرضيّةِ وفي المرّة الثانية، انحنى نحو ابنته الثانية التي كانتْ تُصغي بهيئتِها المألوفة الشّبيهة بهيئةِ الخروف وقال لها وهو يبتسم ابتسامةً باردةً شبه هادئة: «إنّ باروناً كسيدي ورجلاً فقيراً مثلي لا يستطيعان البقاء تحتَ سطحٍ واحد.»

ثم نهضَ فجأةً أبيضَ اللّون، مُرتجفاً، مُخيفاً وقد وسّع الغضبُ جبهتَه فمدّ ذراعه نحو ماريوس وصاح به: «إذهب!»

وفي اليوم التّالي قال السيد جيللينورماند لابنته: «أرسلي ستَّ مئةِ فرنك كلّ ستة أشهر إلى شاربِ الدّماء هذا ولا تَذْكُريه لي أبداً».

لم يقبلْ ماريوس ذلكَ المال... لقد رحلَ ومعه ثلاثون فرنكاً وساعتُه مع بعضِ الملابسِ في كيس.

مَاريوس يحِبّ

صادفَ ماريوس في الحيِّ اللاّتيني الذي كان يتردّد عليه بشكل طبيعي جُمهوريُون شباب: أنجولراس وكومبغير وجان بروفار وفيّي وكورفيراك وباهوريل ولاغل وجولي وغرانتير. كان كلُّ هؤلاءِ الشّبَاب يتذكّرون الجمهوريّة ويحلمون بالثّورة فأصبحَ ماريوس صديقاً لهم وعرفَ مِثْلَهم أيّاماً بلا خُبز وليالٍ دون نوم، وأُمسياتٍ دون ضوءٍ ولا نارٍ وأسابيعَ دون عملٍ، والثّوبَ المثقوبَ عندَ المِرفق والقبّعةَ القديمة التي تُضحك الصّبايا، وبابَ الفندق المغلق لِعدَمِ الدّفع، وضحكةَ الجيران والبوابَ وصاحبَ المطعم، والأعمال القاسية التي ينبغي القيامَ بها كيْلا يموتَ جوعاً.

ورغم ذلكَ أصبحَ مُحامياً، فكتبَ في هذا الموضوع رسالةً باردةً لكنّها مُهذبةً وجّهها إلى جدّه. تناولَ السيد جيللينورماند

الرّسالةَ وهو يرتجفُ فقرأها ثمّ رماها في السلّة مُمزقةً إلى أربع قطع.

قدّم أصدقاءُ ماريوس صديقَهم إلى صَحفيّين فكتَبَ في صحفٍ وتمكّن من أنْ يكسبَ ما يعيشُ به عيشةً رديئة. حاولَ العثورَ على تيناردييه فقصدَ شارل وبوندي وغورناي ونوجنت ولايني ومونغارماي، إلاّ أنَّ تيناردييه كان قد خسرَ في أعمالِه فباعَ الفندقَ واختفى مع زوجته وابنتِه وابنه.

بلغَ ماريوس سنَّ العشرين وكان يذهبُ غالباً للتنَزه في حدائقِ اللّوكسمبورج. وهناكَ التقى رجلاً في الستّين من عمره، أبيضَ الشّعر يرتدي ثوباً قديماً وتبدو عليه الطّيبةُ والقَسوةُ في آنٍ واحد، تسيرُ بجانبه صبيّةٌ زرقاءُ العينيْن، ويجلسانِ يومياً على نفسِ المقعد.

في أحدِ الأيام، نظَرتْ إليه الصبيّةُ فلم يستطعْ ماريوس أنْ يقولَ ما الذي كان في نظراتِها هذه المرّة. لم يكنْ فيها شيءٌ وكان فيها كلُّ شيء. إنهّا وَمْضةٌ غريبة.

عندما عاد في المساء إلى غُرفتِه الفقيرة، ألقى ماريوس نظرةً على ملابِسهِ فرأى للمرّة الأُولى أنّه من الجنون أنْ يَذْهَبَ للنُّزهةِ في اللّوكسمبورج بثيابه اليوميّة أي بقبعةٍ قديمة وحذاءٍ قديم

وبنطالٍ أسودَ ابيضَّتْ رُكبتاه وسُترةٍ ابيضَّ مِرْفقَاها.

في كلّ يومٍ يمرّ كان ماريوس يزدادُ حباً بالصبيّة ويذهبُ يومياً إلى اللّوكسمبورج فينظرُ من بعيد. لم يكنْ يجرؤ على الحديث بل يحُاولُ ألاّ تراهُ الصبيّةُ والرّجلُ العجوزُ إلاّ بأقلِّ قدرٍ ممُكن. كان يبقى أحياناً دقائقَ طويلةً في ظلِّ أحدِ التماثيل وهو يمُسك كتاباً بيده، لكنَّ عينيْهِ المرفوعتيْن بلطفٍ كانتا تنظران إلى الصبيَّة التي تبتسم.

لاحظَ الرّجلُ العجوزُ شيئاً ما فانقطعا عن المجيءِ إلى اللّوكسمبورج. بحثَ ماريوس فلم يستطعِ العُثورَ عليهما. انقضى الصّيفُ ثمّ الخريفُ وحلَّ الشّتاءُ وماريوس تلازمُه فكرةٌ واحدةٌ هي رُؤيةُ ذلكَ المحيَّا الصّافي الجميل. لَمْ يَعُدْ حالماً أو رجلاً قوياً بل أصبحَ حزيناً كالكلبِ التّائه، يُتعبه العملُ أو حتى السّيرُ. كان يخُيّلُ إليه أنَّ كلَّ شيءٍ قَدِ اختفى.

حيثُ تلتقي مجدّداً بتيناردين وكوزيت

كان لماريوس جيرانٌ في البيت الفقير الذي يسكنُه في أحدِ الأحياء القديمة. هم المدعو جوندرات وزوجتُه، وكان لهما ابنتان وولد، ويظهرُ عليهم البؤس الشّديد، إذ يعيشون فقط من المال الذي ينجحون في استدرارِه. وكان ماريوس نفسُه يُساعدهم أحياناً.

كان الولدُ المسمَّى جافروش يأتي من وقتٍ لآخر كي يرى أهلَه. وهذا الغلامُ الذي يتراوحُ عمرهُ بين الحادية عشرة والثانية عشرة كان قد رماه أهلُه في الشارع. إنّه يرتدي أسمالاً باليةً لكنّه مَرِحٌ، فهو يأتي ويروحُ ويغنّي ويلعبُ ويسرقُ قليلاً كيْ يعيش كهرٍّ صغير، ويضحك دون أنْ يكون له منزلٌ أو خبز أو نار لكنه سعيدٌ لأنّه حُر.

كان يقولُ كُلّ شهريْن أو ثلاثة: «سأذهب لِرُؤيةِ أُمّي.» فيغادر عندئذٍ الجادة وينزلُ إلى الأرصفة ثم يَعبُر الجسورَ

ويصل دارَ أهله فيجدُ الفقرَ والحزنَ والبردَ في القلوب.

كان يُسألُ عندَ دخوله: «من أينَ أنتَ آت؟.» فيُجيبُ: «من الشارع» وعندَ ذهابِه يُطرحُ عليه نفسُ السّؤال فيرد بالجواب ذاتِه وتقوله له والدتُه! «ما الذي أتيتَ تفعلُه هنا؟»

كان يعيشُ دونَ حبِّ والديْه كتلكَ الأعشابِ التي تنبتُ في الأقبية، ولم يكُن حزيناً لأنه غيرُ محبوبٍ فهو لا يدري كيف ينبغي أنْ يكونَ الأب أوِ الأم. هذا كلُّ ما في الأمر.



كانتْ جُدرانُ البيتِ الذي يُقطنُه ماريوس وآل جوندرات قديمةً لدرجةٍ يستطيعُ المرءُ معها أنْ يَرى عَبْرها، وذاتَ يومٍ رأى ماريوس وسمعَ دخولَ رجلٍ وصبيّةٍ إلى منزل جوندرات. إنّهما العجوزُ والصبيّةُ اللّذيْن يبحثُ عنهما منذُ وقتٍ طويل. ذلك الرّجلُ هو جان فالجان وتلكَ الصبيّةُ هي كوزيت. أعطيا نقوداً ووعدا بالعودة في نفس المساء لإحضار بعض الملابس.

تحدّثَ آل جوندرات بعد انصرافهما وأصغى ماريوس إلى حديثِهما من غرفته. لقد قرّروا أنْ يسرقوا السيد العجوز بمُساعدةِ أصدقائهم فأسرعَ ماريوس إلى الشّرطة والتقى بجافير.

في المساءِ عادَ السيد العجوز وحدَه فقال له جوندرات إنّه يعرفُه وإنّه قد رآهُ منذُ عشرِ سنواتٍ يخطفُ دونما حقٍّ ابنةً صغيرةً تُدعى كوزيت ثم طلبَ مئتيْ ألف فرنك. ردّ السيد العجوز وفَهِمَ ماريوس أنّ جوندرات اللصّ ليسَ سوى تيناردييه.

وصلتِ الشّرطة فاعتقلتْ جوندارت وأصدقاءَه وقفزَ السيد العجوزُ من النّافذةِ واختفى. صاحَ جافير: «أعتقدُ أنّني أعرفُه» ثم بحثَ عنه فلم يتمكّن من العثورِ عليه.

أمّا هُوَ ماريوس فقد عثرَ عليه، ونجحَ ذاتَ يومٍ في أنْ يرى كوزيت لوحدِها ويبوحُ لها بهواه. لكنّ جان فالجان يريدُ أنْ يحتفظَ بابنتِه لنفسِه وأنْ يُدافعَ عن سعادتِه وعن سببِ حياتِه ضدّ ماريوس. وفي هذه الأثناء كانتْ هنالك ثورةٌ قيد الإعداد، وكانت الشّرطة تتحرّك وتنتشرُ في كلِّ مكانٍ، فخافَ الرّجلُ العجوز وقرّر مُغادرةَ فرنسا والسّفر إلى إنكلترا.

أصابَ اليأسُ ماريوس فقد كان يُحبُّ كوزيت ويعرفُ أنّها تُحبّه وتُريدُ أنْ يتزوّجها. كان من الضّروريّ في ذلك الوقتِ أنْ يكونَ المرءُ في سنِّ الخامسة والعشرين كي يستطيعَ الزّواجَ دونَ إذنِ أهلِه، فذهبَ ماريوس الذي كان في الثّانية والعشرين فقط لِمُقابلةِ جدّه وطلبَ ذلكَ الإذنَ منه. كان هذا الأخير يُحبُّ حفيدَه في قرارةِ نفسِه ومن كلِّ قلبِه، وينتظرُ عودتَه بيأس. فَلَو ارتمى ماريوس بين ذراعيْه لقبّله، لكنّ ماريوس بدا بارداً فأجابَ الجدّ إنّ المرءَ لا يتزوّجُ من أوّلِ فتاةٍ يُصادفُها عندما يُسمّي نفسَه باروناً. عندها خرجَ ماريوس قائلاً: «لنْ أطلبَ منكَ شيئاً بعدَ الآن يا سيّدي فوداعاً!»

فتحَ العجوزُ المسكينُ فمَه ومدَّ ذراعَه مُحاولاً النُّهوضَ لكن بعد فواتِ الأوان فَقَدِ اختفى ماريوس. ركضَ كما يستطيعُ ابن الواحدة والثّمانين أنْ يركضَ وصاح: «الحقوا! ما الذي

فعلتُه له؟ إنّه مجنون! لقد ذهبَ! آه يا إلهي! آه يا إلهي! لنْ يعودَ هذه المرّة!»

ذهبَ إلى النّافذةِ المُطلة على الشّارع ففتحها بيديْهِ المُرتجفتين وانحنى وهو يَصيح: «ماريوس! ماريوس! ماريوس!» لكنّ ماريوس لم يكُنْ يستطيع سماعَه. رفعَ العجوزُ يديْهِ إلى جبهتِه وارتمى على أحدِ الكراسي.

موت اللواء لامارك

ماتَ اللّواء لا مارك في حزيران ١٨٣٢. لقد عرفَ ذلك الرّجلُ الشّجاعُ في ميادينِ معاركِ الثورة والامبراطورية أنْ يُدافع عن الفقراءِ والعمّالِ بَعدَ الحروب. كانَ الشّعبُ يُحبّه فثار يومَ موتِه. وعند مرورِ جنازتِهِ في الخامس من حزيران، ظهرتِ الرّايةُ الحمراءُ، فَقُتلَ ضابطٌ برصاصةٍ وهَجمَ الفرسان. عندها صاحتِ امرأةٌ: «لقد بدأَ الأمرُ أبكرَ ممّا ينبغي».

عندئذٍ انهمرتِ الحجارةُ وانطلقتِ الأعْيرةُ النّاريّةُ وخرجَ المُقاتلونَ من كلِّ مكان. نُصبتِ المتاريسُ وامتلأتْ باريسُ بجلبةِ الحرب، فتردّدتْ صيحات: «إلى السّلاح!» كان النّاسُ يَجْرون ويسقطُونَ ويُقاتلونَ ويُدافعونَ ويتقدّمون ويَتراجعونَ والغضبُ يتصاعدُ كالنّارِ تُؤجّجها الرّياح.

في هذه اللّحظةِ انحدرَ ولدٌ في الحادية أو الثانية عشرة من

مونمارتر وهو يحملُ زُهوراً في يديْه. رأى غدّارةً قديمةً في إحدى
الدّكاكين فرمى زهوره وأخذ السّلاح.

بعد مسافةٍ قليلةٍ رأى قطعَ كاتو وتوقّف. بحثَ في جيوبِه
وقلّبها فلم يجدْ فيها شيئاً حتى ولا قرشاً واحداً... كان من
الصّعب ألاّ يأكلَ آخر قطعةِ كاتو.

بعد دقيقتين كان في سان دنيس فرأى أُناساً أنيقين يمرّون
وقال: «هؤلاءِ النّاسُ الأغنياء مُدْهنون. إنهم يأكلون أكثر ممّا
ينبغي فَسَلُوهم ماذا يفعلون بمالِهم. إنّهم لا يعرفونَ شيئاً عن
ذلك. إنّهم يأكلونه ويتجوّلون ببطونٍ ملأى. هذا كلُّ ما في
الامر.»

ثم صاحَ وهو يرفعُ غدّارتهُ: «كلُّ شيءٍ يسيرُ على ما يُرام.
إحذري أيّتها البطون الملأى! إلى الامام أيّها الرجال! لِنُقاتِل
ولتَعشِ الحريّة!»

في هذه اللّحظة سقطَ فارسٌ أمامَه فوضعَ جافروش (وكان
هو الولد) غدّارته وساعدَ الرجل على النّهوض. ثم التقط
غدّارته واستأنفَ سيرَه.

وعندَ وصوله إلى سوقِ القدّيس يوحنا، التقى جافروش
بمجموعةٍ من الشّبابِ يقودها انجولراس وكورفايراك وكومبيغير

وفيي وباهوريل وجان بروفار. كان تسليحهُم بسيطاً.
فانجولراس يحملُ بندقيّةَ صيدٍ ذات طلقتين، وكومبيفير غدّارتين
وجان بروفار وباهوريل أسلحةً قديمة، أمّا كورفايراك وفيي
فَيحْملان سيفين. وصلوا إلى رصيفِ مورلاند دون ربطاتِ
عُنق ودون قُبّعات، وقد ابتلّوا من المطرِ فسألَهُم جافروش:
«إلى أينَ نحن ذاهبون؟»

أجَابَهُ كورفايراك: «تعال!»

سَارَ فلوري وراءَ باهوريل وكان يرتدي قميصاً أحمر. رآه
أحد المارة فصاح: «هؤلاء هُمُ الحمر!»

لَحِقَ شبابٌ وعمّالٌ مُسلّحون بسيوفٍ أو بعصي، وكان لدى
بعضِهم غدّارات في بناطِيلهم، أمّا جافروش فقد كان يتقدَّم
الجميع.

كان عددهُم يزدادُ في كلِّ شارع. وقُربَ شارع بيّات اختلط
بالشباب رجلٌ طويلٌ أشيبُ الشّعرِ لا يعرفُه أحدٌ ولم يُلاحظه
جافروش المشغول بالغناء وقَرْعِ الابواب والنّوافذ بغدّارته
القديمة المكسورة.

بعد قليلٍ وجدَ كورفايراك وانجولراس وأصدقاؤهما
أنفسهم دونَ أنْ يَدْروا في شارع سان دنيس أمامَ حافةٍ تُدعى

«الكورنيث» اعتادوا أنْ يؤمُّوها كلَّ يوم. توقّفوا وقرّروا أنْ يُقيموا متراساً من الطّاولات والكراسي وقِطَعِ الخشب وعربةٍ قديمةٍ قلبوها فارتفعتْ عجلاتُها في الهواءِ وسطَ الشّارع.

وصلَ رجالٌ آخرون وساعدوهم «وأحضر عمّالٌ برميلاً مملوءاً بالبارود. ثمّ حطّموا المصباحَ الوحيدَ في شارع الشانفريار ومصابيحَ شارع سان دنيس والشّوارعَ المُجاورة: مونتيدور والبجَع والواعظين والتّرياندري الصّغرى.

كان انجولراس وكومبيغير وكورفايراك هُمُ الرُّؤساء. بُنيَ متراسان في نفسِ الوقت من كلِّ جهةٍ من «الكورنيث»، أحدُهما يُغلق شارع الشانفريار والآخرُ شارعَ مونتيدور الصّغير، وعملَ في ذلك خمسون رجلاً» وكان ثلاثون رجلاً مُسلّحينَ بالبنادق. أُشعلتِ النّارُ في المطبخ وشربَ الرجالُ بعدَ العمل، فاختلطتِ الطّلقاتُ على الطّاولة بأقداحِ الخمر.

أمّا الرّجلُ الطّويلُ الذي لاحظَه كورفايراك وكومبيغير وانجولراس في زاويةِ شارع بيّات. فلقد كان يعملُ بإقامة متراسِ شارعِ مونتيدور الصغير ويؤدّي الخدمات هناك، بينما يعملُ جافروش بالمتراس الكبير، فيغدو ويروحُ ويصعدُ ويهبطُ ويتكلّم كما يتنفّس. إنّه يبدو موجوداً هناك لِيُعطي الشّجاعة

للجميع، فهو يملأُ الهواءَ ويتواجدُ في كلّ مكان وفي نفسِ الوقت، فيُفرحُ البعضَ ويُغضبُ الآخرين، إنّه يحطّ ويتوقّف وينطلق من جديد فيطيرُ ويقفزُ من هؤلاء لأولئك، والحركة في ذراعيه الصّغيرتين والضجة في رئتيْهِ الفتيّتيْن.

«مزيداً من الحجارة! مزيداً من البراميل! مزيداً من الأشياء! أين يوجدُ منها؟ سُدّوا لي ذلك الثّقب! إنّ متراسَكم صغيرٌ جداً، فيجبُ أنْ يعلو. ضعوا فيه كُلّ شيء. حَطّموا المنزل! خذُوا، هاكمُ باباً زجاجيّاً.».

ــ بابٌ زجاجي! وما الذي تُريدُ أنْ تصنعَه ببابٍ زجاجيٍّ أيُّها الصّغير؟

ــ إنّ البابَ الزّجاجي حسنٌ جداً في المتراس. إنّه لا يمنعُ مُهاجمتَه ولكنّه يُزعجُ مَنْ يُحاولُ الإستيلاء عليه. ألَمْ تسرقوا أبداً بطاطا من فوق سورٍ تعلُوه قطعُ زجاجات؟ إنّ البابَ الزُّجاجيّ يقطعُ أحذيةَ وأقدامِ الجنود عندما يصعدونَ فوقَ المتراس. ماذا، أليستْ لديكم أفكارٌ يا رفاق؟»

كانَ الولدُ ينتقلُ من الواحدِ للآخر ويسأل: «بُنْدقيّة، إنّني أريدُ بندقيّة! قال كومبيغير: ــ بُندقيّةٌ لك! فأجابَ جافروش:

ـ ولمَ لا؟ لقد كانتْ لديَّ واحدة سنة ١٨٣٠ عندما تناقشنا مع شارل العاشر.

ـ عندما تتوفّر البنادقُ للرّجال، سنُعطيها للأولاد. أجابَ جافروش: «إذا قُتلتَ قبلي فسآخذُ بندقيّتك.»

بلغَ ارتفاعُ المتراسين عندئذٍ المترين؛ وكان هناك ممرَّان ضيّقان يَسمحان بالخروج منه وبالدّخول إليه، مراةٌ حمراء ثُبِّتتْ على العربة.

كان لدى كلِّ رجلٍ ثلاثون طلقة، وبعضُهم لديْه شيءٌ من البارود. صُهِرَتْ ملاعقُ وشُوَكُ وسكاكينُ الفندق على نارِ المطبخ وصُنِعتْ منها رصاصات دون أنْ يكونَ برميلُ البارودِ قد فُتِحَ بعدُ، بل بقيَ في الخارج بين المتراسِ والباب. سُمِعتْ صيحاتٌ عن بُعد وكانتْ للعمّال الذين يَدعونَ شعبَ باريس للثّورة.

حُشيت جميعُ البنادِق معاً ببطءٍ ودونما عجلة. وبعد إقامة المتاريسِ لَزِم كلٌّ مكانَه والبنادقُ مُعبّأةٌ أمامَ تلكَ الشّوارع التي أقفرتْ من المارّة، وسطَ تلكَ البيوت الميّتةِ الملفوفة بظُلماتِ اللّيلِ الهابطِ وبذلكَ الصّمت الذي كانوا يشعرونَ بشيءٍ ما يتقدّمُ فيه، فانتظروا وهم مُسلّحون، واثقون من أنْفُسهم ومُطمئنّون.

رَجُلُ شارع بَيّات

هبطَ اللّيلُ تماماً فلم يأتِ شيء، بل سُمعتْ فقط في بعض اللّحظاتِ طلقاتُ بندقيّةٍ نادرة وبعيدة. كانتِ الحكومةُ تأخذُ وقتَها وتجمعُ قُواها، فكان الخمسون رجلاً ينتظرونَ ستّينَ ألفاً.

كان انجولراس يودّ أنْ يرى المعركةَ تبدأ. فذهبَ إلى جافروش الذي شرعَ هو أيضاً بإعداد الطّلقات في القاعة المنخفضة. لكنّ الغُلامَ توقّف وأخذَ ينظرُ إلى بندقيّة رجلِ شارع بيّات الذي دخلَ منذ قليل أمامَ الطّاولة الأقلّ إضاءة. ومن البندقيّةِ انتقلتْ نظراتُ الولدِ إلى الرّجل وعندئذٍ نهض ودارَ حولَه على أطراف أصابعه كما يمشي حول مَنْ يخشى ايقاظه. وفي نفس الوقت كان بوسع المرء أنْ يقرأ على وَجْهِ المرحِ والجادِّ كلَّ هذه الأسئلة: ـ آه! هذا غيرُ ممكن! ـ إنّ رؤيتي ازدوجتْ! ـ إنّني أحلم! ـ هل يُمكن أنْ يكون؟ . . . كلاّ ليس هو. . ـ لكنْ بلى! ـ لا!!.

في هذه اللّحظةِ بالذّات تحَدّث إليه انجولراس قائلاً: «إنّك صغيرٌ ولن يروك، فامشِ بمحاذاة البيوت واذهبْ إلى كلّ مكان في الشّوارع ثم عُدْ وقُلْ لي ما الذي يَحْدُث.

ـ أيصلُحُ الصّغارُ إذن لعملٍ ما! إنّ هذا لمن حسنِ الحظ! أنا ذاهبٌ وبانتظار ذلك، إحترسْ من الكبار.»

رفع جافروش رأسَه وخفضَ صوتَه مُضيفاً، وهو يشيرُ إلى رجلِ شارع بيّات:

ـ أترى ذلك الكبير؟

ـ حسناً؟

ـ إنّه رجلُ شرطة.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ لقد شدَّ لي أُذني منذ خمسة عشر يوماً عند الجسر الملكي.

لم يكنْ جافروش مُخطئاً فقد كان ذلك الرّجل شرطياً، إنه جافير. أمرَ انجولراس باعتقاله وبشدّ وثاقه من قِبلَ أربعةِ رجال إلى إحدى طاولاتِ القاعة المُنخفضة. قال جافروش: «إنّ الفأرةَ هي التي أمسكتْ بالهر». وأضافَ انجولراس:

«ستُقتل قبل دقيقتين من الإستيلاء على المتراس.» فردّ جافير: «ولِمَ لا يكون ذلك فوراً؟».

ـ نحنُ قضاةٌ، لا قَتلَة.

ثم أَضافَ مُوجهاً كلامَه إلى جافروش:

ـ أمّا أنتَ فاذهب الى عملك وافعل ما قلته لك.

صاحَ جافروش: ـ إنّي ذاهب. ثم توقّف لحظةً قبلَ أنْ يُغادر وقال: «سوفَ تُعطيني بندقيّة»

الـرّايـة

دقّتِ السّاعةُ العاشرة في سام ميرّي، فجلسَ انجولراس وكومبيغير والبندقيةُ في يدهِما قُربَ مدخلِ المتراس الكبير. لم يتحدّثا بل أَصْغيا مُحاولين أنْ يسمعَا حتى وقع الاقدام البعيدة.

فجأةً ارتفعَ وسطَ ذلك الصّمتِ الحزين صوتٌ صافٍ فتي ومَرِح بدا آتياً من شارعِ سان دنيس وبدأ الغناء:

في ضوءِ القمر

يا صديقي بيارو

أَعِرْني ريشتَك

لأكتُبَ كلمة.

قال انجولراس: «إنّه جافروش» وأضافَ كومبيغير: «إنّـه يحذّرُنا.»

بعد دقيقتين وصلَ الولدُ راكضاً فقفزَ من فوقِ العربةِ القديمة وصاح: «إليَّ بِبُندقيتيَّ! هَاهُمْ!»

سُمعتْ حركةُ الأيدي تَبحثُ عن البنادق وقال انجولراس:

ــ هل تريدُ بندقيّتي؟

أجابَ جافروش:

ــ إنّني أُريدُ البندقيةَ الكبيرة.

وأخذَ بندقيّةَ جافير.

ركعَ انجولراس وكومبيغير وكورفايراك وجولي وباهوريل وجافروش والآخرون، ورأسهُم في مُستوى المتراس الكبير، وبنادقهم جاهزة لإطلاق النّار.

انقضتْ لحظةٌ سُمِعَ بعدها وَقْعُ خُطى ثقيلة وبطيئة. وبدا أنَّه يُسمع في طرف الشّارع تنفُس عددٍ كبيرٍ من الرّجال. ومع ذلك فلم يُرَ شيءٌ سوى بنادقَ تلمعُ في البعيد. بعد انتظارٍ خرجَ فجأةً صوتٌ من الظّلام وصاحَ:

ــ مَنْ هُناك؟ وفي نفس الوقتِ سُمِعَ صوتُ تجهيز البنادق.

أجابَ انجولراس: «ثورةٌ فرنسية. فقال الصّوت: ـ أطلقوا النّار!»

عبرَ وميضٌ أحمرُ الشّارعَ فسقطتِ الرّايةُ وجُرح عدّةُ رجال.

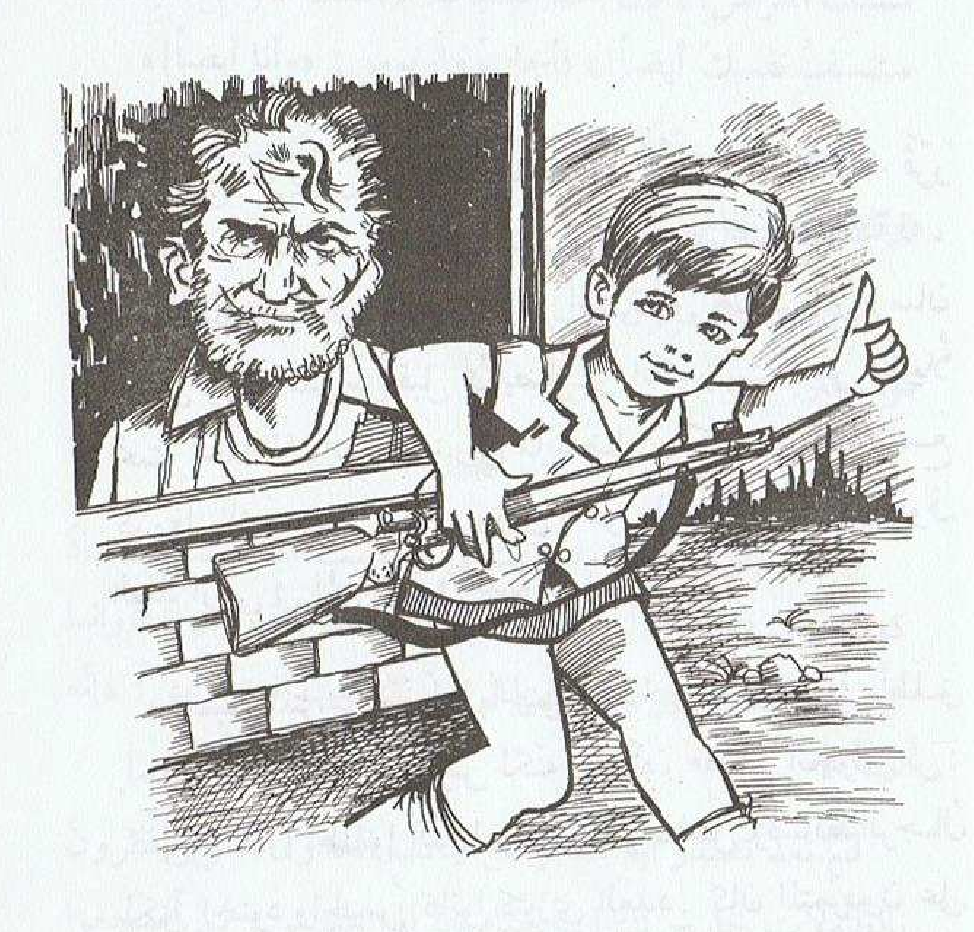
صاحَ عندئذٍ كورفايراك: «أيُّها الرّفاق، لا تُبدّدوا البارود، ولننتظر تقدّمهم.» ثمّ التقط الرّايةَ التي سقطتْ عند قدميْه، وسمعَ الجنودَ عن قربٍ وهم يُعيدون حشوَ بنادقِهم.

في هذه الأثناء رأى جافروش الصّغير رجالاً لا يتقدّمون بُمحاذاة الجدران فصاحَ: «إنتبهوا» لكنّ الوقتَ كان قد فات تقريباً فظهرتْ حرابٌ فوقَ المتراس ومرَّ حرسٌ من فوق العربةِ دافعينَ أمامَهم الولدَ الذي تراجعَ لكنّه لمْ يهرب...

هجمَ باهوريل على أوّل الدّاخلين من الحرسِ وقتَله بطلقةِ بندقيّة، فقتلَ الثّاني باهوريل بطعنةِ حَرْبة» ورمى آخر كُورفايراك أرضاً فصاح: «إليّ!» أمّا أطولُهم فقد اتجه ناحية جافروش وحَرْبتُه مُصوّبة إلى الامام. تناولَ الولدُ بُندقيّة جافير الطّويلة بين ذراعيْهِ الصّغيرتين وأطلقَ النّار فلم ينطلق شيءٌ لأنّ جافير لم يحش سلاحَه. ضحكَ الجنديُّ ورفعَ الحربةَ على الفتى. لكنْ، وقبلَ أنْ تلمسَ جافروش سقطتِ البندقيّةُ من يديْه إذ أصابتْه رصاصةٌ في وسطِ جبهتِه فسقطَ على ظهره.

وأصابتْ رصاصةٌ ثانيةٌ الجنديَّ الآخر المُنحني فوقَ كورفايراكَ في ملءِ صدرِه فَجَنْدَلَتْهُ على الحجارة.

إنّه ماريوس الذي دَخلَ مُنذ قليلٍ إلى المتراس.



مَاريوس

خرجَ ماريوس من عند جدّه فَعَلِمَ أنَّ جان فالجان قد قرّرَ اصطحابَ ابنتِه كوزيت إلى لندن وأنّها قد ضاعتْ بالنّسبة له، فأخذ عندئذ أسلحتَه وبحثَ عن أصدقائه. صعدَ شارع سان دنيس ورأى المتراسَ قبل أنْ يصلَ إلى الكورنيث. بقيَ طويلاً تحتَ أحدِ الأبوابِ لا يدري ما يفعل، لكنّه عندما سمعَ كورفايراك يَصيح: «إليَّ»، ورأى باهوريل مَقتْولاً والحربةُ فوقَ الولدِ ارتمى في المعركة وفي يديْه غدارتان.

أصبحَ المتراسُ مُغطّى بالجنودِ والبنادقُ في أيديهم. أطلَقَ أحدُهم النّارَ على ماريوس لكنّه أخطأه، فصاحَ انجولراس: كفَى انتظاراً أطلقوا النّار!» انطلقَ الرّصاصُ وتساقطَ الرجالُ لكنّ الجنودَ والحرسَ كانوا كثيري العدد. كان المتمرّدون على شَفيرِ الهلاكِ عندما سُمِعَ صوتٌ قويٌ يصيح: إذهبوا وإلاّ نسفتُكم!» فالتفتَ الجميعُ إلى الجهةِ التي صدرَ عنها الصّوت.

كان ماريوس قُربَ برميلِ البارود الذي أسقطَه فانفتح. نظرَ الجميعُ حَرَساً وضُباطاً وجنوداً إلى الشابّ الذي وضعَ قدمَه على حجرٍ وأمسكَ مِصْباحاً بيدِه والتّصميم بادٍ على وجهِه ثم أدنى اللّهبَ من البارود مُطلقاً هذهِ الصّيحة: «إذهبوا وإلا نسفتُ المتراس!» قال أحدُ الضّباط: «تنسفُ المتراس! ولكنّكَ ستنسفُ نفسكَ أيضاً!» فأجابَ ماريوس: «وأنا أيضاً!»

انفضَّ الجميعُ من حولِه وفرّ الجنودُ راكضين، تاركين موتاهم وجَرحاهم.

أحاطَ الثائرونَ بماريوس وعانَقَهُ كورفايراك. قال كومبيغير:

ــ ها أنتَ هُنا! يا لِحُسنِ الحظ!

وقال جولي: «لقد أتيتَ في الوقت المناسب.» عادَ كورفايراك فقال: «لولاكَ لمتّ.» أضافَ جافروش: «وأنا أيضاً!» سألَ ماريوس: «أينَ الرئيس؟» فقال انجولراس: «إنّه أنتَ.»

لم تعدْ تصدرُ أيّةُ ضجةٍ من جانبِ العدو، فألقى الثّائرون بالطّاولات خارجَ النّزل وأضافوها إلى المتراس، ثم أضجعوا الجرحى في القاعة وعالجوهم قدرَ المُستطاع.

في هذه اللّحظةِ نظر ماريوس إلى جافروش بن تينارديه الذي أنقذَ أباهُ فخطرتْ له فكرةُ إنقاذ الإبن بدورِه وإرسال وداعٍ أخير إلى كوزيت. تناولَ محفظته وبحثَ فيها عن ورقةٍ كتبَ عليها: «إنّ زواجنا مُستحيل، فلقد طلبتُ الإذنَ من جدّي ورفض. ليسَ لديّ نقودٌ وكذلك أنت. لقد ركضتُ إلى دارِكِ فلم أجدكِ وقيل لي إنّكِ مُسافرةٌ غداً إلى إنكلترا! أنتِ تعرفينَ العهد الذي أعطيتُه لكِ وإنّني لَهُ لحَافِظ. إنّني أموتُ وأُحبّكِ. عندما تقرأين هذا ستكونُ رُوحي بقربك وستبتسمُ لكِ.»

طوى الرّسالة وبقيَ مُفكراًلِلحظةٍ ثم تناولَ محفظتَه من جديدٍ ففتحَها وكتبَ بنفسِ القلم هذه السّطورَ الأربعةَ على ورقةٍ أُخرى قديمة: إنّني أُدعى ماريوس بونمارسي فاحملوا جثّتي إلى جدّي السيّد جيللينورماند شارع فيّ دي كالفار، الرقم ٦ في الماريه!»

أعادَ المحفظةَ إلى جيبِ ثوْبه ونادى جافروش قائلاً:

ــ أتريدُ أنْ تفعلَ شيئاً من أجلي؟

ــ كلَّ شيء. فلولاكَ لكنتُ ميّتاً حقاً.

ــ أنتَ ترى جيّداً هذه الرسالة.

ــ اجل.

ــ خُذْها واخرجْ من المتراس فوراً وسلّمها غداً صباحاً على العنوان إلى الآنسة كوزيت عند السيد فوشليفان شارع الرّجل المسلّح، رقم ٧.»

ــ لكن في هذه الأثناء سيتمّ الإستيلاء على المتراس ولنْ أكونَ فيه.

ــ لنْ يُهاجمَ المتراس إلاّ عند طلوعِ النّهار ولن يُستولى عليه قبلَ الظّهر.

ــ حسناً فماذا لو ذهبتُ لِنقلِ رسالتِكَ غداً؟

ــ سيكونُ الوقتُ قد فات، فكلُّ الشّوارع ستكونُ محروسةً ولنْ تستطيعَ الخروج. إذهبْ فوراً

لم يجدْ جافروش ما يجيب به فبقيَ يحكُّ أذنَه وهو حزين. فجأةً وبحركةٍ من حركاتِ الطّير التي له، أخذ الرّسالة وقال: «حسناً» ثم انطلق يعدو من شارع مونتدتيور الصغير. لقد خطرتْ له فكرةٌ لم يُفصحْ عنها وهَا هِيَ: «لم يجُاوز الوقتُ مُنتصفَ الليل؛ وشارع الرجل المسلّح ليس بعيداً. سأنقلُ الرّسالة فوراً وأعودُ في الوقتِ المناسب.»

عَدد مصابيح الشّوارع

سمِعَ جان فالجان بصعوبةٍ جلبةَ المعركةِ إذْ لم يكن يُفكّر إلاّ في كوزيت التي هي كلُّ حياتِه والتي كان يشعر أنّهامُستعدةٌ لِتَركه. وكان يكره. كان يكرَهُ ذلك الشّابّ الذي غالباً ما رآه ينظرُ إلى كوزيت، ذلك الشّابَّ التّعيس! كان يتساءَل: هل يحقّ له أنْ يأتيَ ويُلاطف بنظراتِه فتياتٍ إلى جانب أبيهنّ الذي يُحبّهنّ؟

لم يستطعِ البقاءَ جالساً، مُطمئناً في دارِه فخرجَ إلى الشارع، وسار طويلاً وهو ممزّقُ القلب ثم جلسَ أمامَ بابِ منزِله.

فجأةً رفع جان فالجان عينيْه فسمعَ خطواتٍ قُربه وعرف أنَّ هناك مَنْ يسيرُ في الشّارع. نظَر ورأى على ضوءِ مصباحِ الشّارع من جهةِ شارع الأرشيف وجهاً فتياً وسعيداً.

نظَرَ جافروش في الهواء وبدا كمنْ يبحثُ عن شيءٍ ما.

للحظةٍ قصيرةٍ خلتْ لم يكنْ جان فالجان لِيُكلّمَ أحداً أوْ يردَّ على أحد، لكنّه شعرَ بدافعٍ يحثّهُ على مُخاطبةِ ذلك الغلامِ فقال له: «ما بكَ يا صغيري؟» أجاب جافروش: «إنّني جائعٌ» ثم أضاف: «أنتَ نفسُك صغير»

بحثَ جان فالجان في جيْبِهِ وأخرجَ منه قطعةً بخمسة فرنكات لكنّ جافروش كان يُفكّر في أمرٍ آخر، فلقد رأى مِصْباحاً والتقطَ حجراً وقال: «ألاَ تزالُ لديكُم أنوارُكم هنا؟ لم يعدْ لكمُ الحقّ في ذلك، يا أصدقائي. هذه فوْضى فحطمّوا لي هذا.»

ثم قذف المصباحَ بالحجر فاهتزّ وانطفأ وأظلمَ الشّارع.

قال عندئذٍ لجان فالجان: «ما هذا البيتُ الضخم هناك؟ يجبُ إلقاءُ ذلكَ كلّه أرضاً، فيشكّلُ مِتراساً جميلاً.» نهضَ جان فالجان واقتربَ من جافروش وأعطاهُ قطعةَ الخمسةِ فرنكات. نظرَ جافروش إليها فوجدَها جميلةً ثم ردّها قائلاً: «لا أُريدها.»

سأله الرجل:

ـ هل لكَ أُم؟

ـ ربّما أكثر منك.

— حسناً، إحتفظ بهذهِ النّقود لوالدتِك.

شعرَ جافروش بتأثّر وقال: «حقـاً، أليسَ هذا المِنْعي من تحطيمِ مصابيحِ الشّوارع؟

— حطّم كلَّ ما تُريده.

— إنّكَ رجلٌ طيّب.

قالها جافروش ووضعَ قطعةَ الخمسة فرنكات في إحدى جيُوبِه ثم أضاف: «أأنتَ من هذا الشارع؟»

— نعم. لماذا؟

— أتستطيعُ أنْ تدلّني على الرقم ٧؟

— وماذا تُريدُ أنْ تفعلَ بالرقم ٧؟

هنا توقّف الولدُ وقد خشي أن يكونَ قد تكلّم أكثر ممّا ينبغي، فمرّ بأظافرِه على شعرِه وأجابَ ببساطة: «آه! هاك ما في الأمر»

مرّتْ فكرةٌ في خاطرِ جان فالجان فقال للغلام: «أأنتَ مَنْ تحملُ لِيَ الرّسالة التي أنتظرها؟

— أنتَ؟ إنّكَ لستَ امرأة.

— إنّ الرّسالةَ للآنسة كوزيت، أليسَ كذلك؟

— كوزيت؟.. أجلْ أعتقـدُ أنّ هذا هو ذلك الإسـمُ الغريب.

— حسناً، إنّني أنا الذي ينبغي أنْ يُسلّمها هذه الرّسالة فاعطني إيّاها.

— يجبُ إذنْ أنْ تعلمَ أنّني مُرسلٌ من المتراس؟

— دون شك.

وضعَ جافروش قبضتَه في إحدى جُيوبه وأخرجَ منها ورقةً مطويّةً أربعَ طيّات وقال: «هذه من الحكومة» ثم حيّا مكرّراً:

— إنّك تبدو لي كرجلٍ طيّب.

وأضاف:

— عجّل يا سيّد فلان، فَمِنَ المؤكّدأنَّ الآنسة كوزيت تنتظر. إنّني عائدٌ إلى المتراسِ في شارع شانفريار، إذا أحْبَبْتَ أنْ تعرف مساءً سعيداً.

قال جافروش ذلك وانصرف أو بالأحرى استأنفَ طيرانه كالعصفور، واختفى كدخّانٍ في الليل. أمّا جان فالجان فقد كان يُمكن أنْ يظنّ أنّه قد حلمَ لو لم يكن يُمسكُ الرّسالةَ في يده

ويسمعُ بعد قليلٍ زجاجَ أحدِ المصابيح يتحطّم على بلاطِ الشّارع . إنّه جافروش . يمرّ في شارع شوم.

صعدَ جان فالجان إلى داره وقرأ: « . . إنّني أموتُ وعندما تقرأين هذا، ستكونُ روحي قُربكِ وتبتسمُ لك . »

كان الرجلُ الذي يُريدُ أخذَ كوزيت منه، الرجل الذي يكرهُه، على شفيرِ الموت، فأطلقَ صيحةَ فرحٍ لأنه سيجدُ نفسَه ثانيةً لوحده مع كوزيت. لم يفعلْ شيئاً في هذا السّبيل لكنّ الأمرَ واقع، فما عليه سوى أنْ يتركَ الأمور تجري، لأنّ كلَّ رجلٍ شارك في هذه الثّورة هالِك. فإذا لم يكنْ ماريوس قد ماتَ بعد، فَمِنَ المؤكّد أنّه سيموت. أيّةُ سعادةٍ تلك!

ومع ذلك فقد خرجَ جان فالجان بعد ساعةٍ وهو بثوبِ الحرسِ الوطني، يحملُ بندقيّةً مَحشّوةً وجيُوبه ملأى بالطّلقات.

ناقص خمسة، زائد واحد

جلس ماريوس إذ لم يعدْيهتمُّ بشيء حتى أنه لم يُلاحظ أنّ انجولراس قد أصدرَ الأمرَ بإصلاح المتراس وأنّ رفاقَه يعملون على رَفعها بما يُقارب المتر. غُرست قِطعٌ من الحديد في أرضيّة الشّارع ونُقلتْ كذلك قِطعٌ من الخشبِ وبعضِ الأثاث.

وفي مَطبخِ النزْل، كان الجرحى يلقون العناية، والرّجالُ يجمعون البارودَ المُتناثر على الأرض وعلى الطّاولات ويُتابعون صهر الرّصاصات. أمّا الموتى فقد حُملوا الى شارع مونديتور الصغير حيثُ كُدّسوا وتُركوا أثراً أحمَرَ على البلاط لمدة طويلة.

كان بين أولئكَ الرجال أربعةُ أفرادٍ من الحرس الوطني وضعَ انجولراس ملابسَهُم جانباً ثم نَصحَ الجميعَ بالنّومِ ساعتين، فنامَ ثلاثةٌ أو أربعةٌ فقط من الأربعينَ الباقين على قَيْدِ الحياة، وكان كلُّ الجرحى لا يزالونَ مُصمّمينَ على القتال.

بقيَ جافير لوحدِه مُوثقاً في القاعةِ المنخفضة.

بدأ النَّهارُ يطلعُ فخرجَ انجولراس وعَبَرَ شارع مونديتور.

كان الأملُ يغمرُ المتمرّدين ولم يكن الهجومُ القادم يبدو لهم أخطرَ من هجومِ الليل فانتظروه وهم يَبتسمون دون أنْ يُخامِرَهُم الشكُّ في أنّهم سيكونونَ مُنتصرينَ أيضاً، فقد كانوا يَعتمدونَ إذا ما قاوموا طويلاً على ثورةِ باريس بأسرها.

لكنّ انجولراس عاد وقال: «إنّ ثلثَ جيش باريس موجودٌ أمامَ متراسنا، علاوةً على الحرس الوطني. ستُهاجمون خلالَ ساعة وليس هناكَ ما ننتظرهُ أو نأملُه من الشعب فهو خائف.»

صمتَ الجميعُ لكنّ صوتاً صاح: «لِنرفعِ المتراسَ إلى علوِّ عشرين قَدحاً ولْنبق فيه جميعاً، لِنُبرهنَ أنَّه إذا تركَ الشّعب الجمهوريّين يذهبون إلى الموت، فإن الجمهوريّين يبقون مع الشعب.» أجابَ أربعون ثائراً:

ــ لنبقَ هُنا جميعاً!

قال انجولراس:

ــ إنّ المتراسَ متينٌ ويكفيهِ ثلاثونَ رجلاً فلماذا الأربعون؟

ــ لأنَّه ما من أحدٍ يُريدُ الذهاب.

صاحَ انجولراس:

ــ أيها الأصدقاء، إن الجمهوريّةَ ليستْ غنيّةً بالقدرِ الكافي من الرّجال، فلا يجبُ أنْ نتركَ أفضلهم يُقتلون دون جدوى. إذا كان واجبُ البعض أنْ يذهبوا فيجب عليهم أنْ يقوموا بهذا الواجب كأي واجبٍ آخر.»

ثم لامَس كتف كومبيغير ودخلَ الإثنان إلى قاعةِ الكورنيث المُنخفضة. خرجا بعد لحظة وانجولراس يُمسكُ السّترات والبناطيل الأربعة لأفراد الحرسِ الوطني المَقتُولين. ثم قال: «هاكُم ملابسَ لأربعة!» ورمى الثّيابَ أرضاً.

قال ماريوس: «لِيَخرجِ المتزوِّجون والآباء من الصّفوف.» وصاحَ انجولراس: «هذا أمر!»

قال شابٌّ لرجلٍ مُكتمل السن: «هذا صحيحٌ أنتَ أبُ أُسرة، فاذهب!» أجابَ الرجُل: «منَ الأفضلِ أنْ تذهبَ أنتَ فلديكَ أُختان صغيرتان ووالدكَ ميّت.»

كان كلٌّ يجتهد كيْلا يتركَ نفسَه يعود إلى الحياة.

بعد بضعِ دقائق خرج خمسةٌ من الصفوف... ولم يكن هناك سوى أربعة أثواب. قال الخمسة: «حسناً يجبُ أنْ يبقى واحداً» فتنافسوا على البقاء واجتهد كُلٌّ منهم لإيجاد سببٍ يمنعُ الآخرين من أنْ يبقوا.

فجأةً سقطَ ثوبٌ خامس على الأربعةِ الأُخر. رفعَ ماريوس عينيْهِ وتعرف على جان فالجان الذي سمحَ له ثوبُ الحرس الوطني بالمرور بسهولة، والذي وصلَ دون أنْ يُرى فسمعَ كلَّ شيء وخلعَ ثيابهَ ثم رماها دونما ضجّة على كومةِ الملابس. سأل جولي: «مَنْ هو هذا الرجل؟ فأجابَ كومبيغير:

ـ إنّه رجلٌ يُنقذُ آخرين». وأضافَ ماريوس بصوتٍ عميق: «إنّني أعرفه. قال انجولراس: أنتَ تعرفُ أنَّنا سنموت.» فما كان من جان فالجان إلاّ أنْ ساعدَ الثّائرَ الذي أنقذه على ارتداءِ ملابسهِ دون أنْ يُجيب.

القذيفة الأولى

كيفَ وصلَ جان فالجان الى هناك؟ ولمَ؟ وماذا أتى يفعل؟ لم يُوجّه ماريوس لنفسِه كلَّ هذه الأسئلة، فقد كان يبدو له أنَّه من الطّبيعي أنْ يأتي جميعُ النّاسِ لِيموتوا. لكنّه فكَّر في كوزيت فانقبضَ قلبُه.

لم يُكلّمه جان فالجان ولم ينظرْ إليه ولم يبدُ عليه أنّه سَمِعَ ماريوس يرفعُ صوتَه قائلاً: «إنّني أعرفه» فسعدَ ماريوس بذلك، إذ لم يكن قد خطَرَ له أبداً أنْ يتجرّأ على التحدّث إلى ذلك الرّجل الصّامت.

أمّا هو فقد توقَّف أمامَ بابِ المطبخ ونظرَ إلى جافيرِ المربوط إلى طاولتِه والذي عرفَه. طلعَ الضّوءُ بسرعة، لكنْ لم يُفتح بابٌ او شبّاكٌ فقد حلّ النّهار ولكنْ لم تحل اليقظة.

لم يكنْ يُرى شيءٌ من الشارع المُقابل، لكن كان يُسمع نوعٌ من الحركةِ عن بُعد، يُشير إلى أنَّ المعركة قيْد التحضير.

ارتفع المتراسُ أيضاً بفضلِ الحجارةِ الجديدةِ التي أحضرها الثّائرون.

أطلقَ المتراسُ كلُّه النّارَ فغطّى دخانٌ كثيفٌ القاعةَ والرّجالَ القائمين على المدفع. ثم ظهرَ المدفعُ والرّجالُ شيئاً فشيئاً فَدَحرجوه ببطءٍ ودونما عجلة إلى أمام المتراسِ ثم تهيّأ المشرفُ عليه للإطلاق فقال انجولراس: «أعيدوا حشوَ البنادق» وهو يَتساءَلُ عمّا إذا كان المتراسُ سَيَصمُد.

انطلقتِ القذيفةُ بينْ الجدران مُحدثـةً ضجـةً مُرعبـة، وفي نفس اللّحظةِ التي أصابتْ فيها المتراسَ كان جافروش يقفزُ وسطَ أصدقائه بعد أنْ وصلَ آتياً من شارع مونديتور.

أمّا القذيفة فلقدْ ضاعتْ في المتراس فحطّمت على الأكثر دولابَ العربةِ القديمة واجتازَتْها. وعندما رأى الثّائرون ذلك بدأوا يَضحكون فصاحَ بهم بوسويه: «أكملوا!»

القذائف

أحاطَ الثّائرن بجافروش لكنّ ماريوس لم يتركْ له وقتاً للكلام وأدخلَه إلى النزْل حيثُ سأله: «ما الذي أتيت تفعلُه هنا؟» فقال الصبيُّ:

ــ وأنتَ؟ ثم نظرَ إلى عينيْ ماريوس.

ــ ومَنْ ذا الذي قال لك أنْ تعود؟ هل سلّمت على الأقلّ رسالتي إلى عنوانها؟

لم يكن جافروش شديدَ الرّضى عن نفسه فهو لم يُسلم حقاً تلكَ الرّسالة، لذلك كَذَبَ وقال: «لقد أعطيتُ الرّسالة للبواب إذ كانتِ السيّدةُ نائمةً وستكونُ لديْها عندما تفيق.»

دلَّ ماريوس جافروش على جان فالجان وسأله: «أتعرفُ هذا الرّجل؟ فأجابَ: «كلاّ» وكان جوابُه صحيحاً فهو لم يَرَهُ إلاّ في الليل.

قالَ ماريوس لِنفسِهِ: «ربَّما كان جُمهورياً، وفي هذه الحالةِ من الطّبيعي أنْ يكونَ هنا»

في هذه الأثناء كان جافروش يصيحُ في الطّرفِ الآخر من المتراس: «بندقيتي!» فردّها إليه كورفايراك.

حذّرَ جافروش الرّفاق كما يَدْعوهم أنـه قد لقيَ صعوبـةً كبيرةً في الرّجوع لأنَّ الجيشَ يحتلّ جهةَ شارعِ البجع والحرس الوطني جهةَ شارع الواعظين.

في الجهة المُقابلة كان الجنودُ يبنونَ حائطاً صغيراً مُنخفضاً من بلاطِ الشّارع. ثم تهيّأ رجالُ المدفع لإطلاق قنابلَ بدلاً من القذائف.

صاحَ انجولراس: «أخفضوا الـرّأسَ، واحتمـوا جميعُكم بالحائط. إركعوا على رُكبكم قُربَ المتراس» لكنّ تحذيره جاء مُتأخراً فقد أُطلقَ فَرفـعَ قتيلان وثلاثـةُ جرحـى. عندئـذ قال انجولراس: «لِنَمنع الطّلقة الثّانية، يجب أنْ نقتلَ المشرفَ على المدفع. ثم أطلق النّارَ فهوى الرّجـلُ وهـكذا ربحـوا بضـعَ دقائق. . . صاحَ انجولراس: «إصغوا، يُخيّل إليّ أنَّ باريس تستيقظ.» كان ذلك صحيحاً ففي صباح السادس من حزيران إمتدّتِ الثّورة إلى بعضِ الأحياءِ الجـديدة كشـارعِ شجـرةِ

الإجاص وشـارع جرافيلليه حيثُ بُدىء بإقامـة المتـاريس. وعند مدخلِ شارع بيرتان بواريه أُطلقـتِ النّـارُ على بعضِ المارّة من الفُرسان. وفي شارع بلانش ميبراي رُميت زجاجاتُ مكسورةُ من أعلى السّطوح. لكنْ ولسوء الحظ قُضي على الأمل بنفس السّرعة التي أتى بها، فبعد ساعةٍ لم يصمُدْ في باريس سوى ثلاثة أو أربعة متاريس. ارتفعت الشّمس فقال أحدُ الثّائرينَ: «نحنُ جائعون هنا، فهل سنموتُ حقاً هكذا دون أنْ نأكل؟ أجابَ انجولراس بين قنبلتين: «نعـم». ثم لحظَ كورفايراك: «أنظروا، فهناك جديد».

أتي بمدفعٍ ثانٍ قُبالتهم، وبعد بضع دقائق عُبّىء المدفعان بسرعة وأُطلقا معاً. كان أحدُهما يُطلق قذائفَ والآخر قنابل، فتُهدّمُ الأُولى حجارةَ المتراس وتجرحُ الثّانية أو تقتلُ الثّائرين. وبعد قليلٍ كان الجنودُ سيُهاجمون.

صاحَ انجولـراس: «أطلقـوا النّـار!» فمـلأ دخـانٌ كثيفٌ الشّارع وبعد دقائقَ ظهرَ تحت المدفعينِ ثلثا القائمـين عليهما واستمرّ الباقون بإطلاقهما بهدوء، لكنّ النّار أصبحـتْ اشـدَّ بطءاً. قـال بوسـوييه لانجولـراس: «لقـد تحسّنـتِ الحـال» فأجابَ: بعدَ رُبع ساعةٍ من إطلاق النّار هكذا لَنْ تبقى عشرُ طلقاتٍ في المتراس.

چافروش في الخارج

رأى كورفايراك فجأةً أحدَ النّاس عند أسفلِ المتراس خارجاً في الشّارع تحت الرصاص.

كان جافروش قَد أخذَ سلّةً من النزل ثم خرجَ وشرعَ يفرغُ بهدوء أكياسَ القتلى من الحرسِ الملأى بالطّلقات في سلّتِه.

سألَه كورفايراك: «ما الذي تفعلُه هناك؟» فرفع جافروش أنفه وأجاب: «إنّني أملأ سلّتي.

ـ ألاَ ترى أنهم يُطلقون النّار؟

ـ حسناً، إنها تمطرُ وماذا بعد؟»

صاحَ كورفايراك: «عُدْ» فردّ جافروش: «بعدَ قليل» ثم قفزَ إلى أبعد.

كان حواليْ عشرينَ من الموتى ممدَّدين هنا وهناك على

الارض، يمثّلون لجافروش عشرين كيساً من الطّلقات يُمَوِّنُ بها المتراس.

كانَ الدّخانُ يلفُّ الشّارع كالضّباب، ومن لم يرَ غيمةً تسقطُ في وادٍ بين جبلين مُرتفعين لا يستطيعُ تصوُّرَ ذلك، فقد كان الدّخان يتصاعدُ ببطءٍ ثم يسقطُ ثانيةً ويعودُ إلى الصّعود من جديد. ورغم قِصرِ الشّارع، فقد كان المُتقاتلون لا يرون بعضَهم في البيت من طرفِ الشّارع إلى طرفِهِ الآخر إلاّ بشقِّ الأنفس لِصِغره. وكان بوُسعِ جافروش أنْ يذهبَ بعيداً دون أنْ يُرى. فأفرغَ سبعةَ أو ثمانيةَ أكياس.

كان يَحبو على أربع وبطنُهُ ملتصقٌ بالأرض، مُمسكاً سلّتَه بأسنانه فيلتفتُ وينعطفُ ويتلوّى كالثّعبان من ميتٍ إلى آخر.

ومن المتراس الذي كان لا يزالُ قريباً منه، لم يجرؤْ أحدٌ أنْ يصيحَ به كي يعودَ خوفاً من لفتِ الإنتباه إليه. وجدَ وعاءً من البارود على أحد الموتى فوضعَه في جيْبه قائلاً: «لِلْعطش» ثمّ تابعَ فبلغَ المكانَ الذي انقشع فيه ضبابُ البارود وأصابتْ رصاصةٌ ميّتاً أمامَه فقال: «ها هُم يَقْتلونَ لي موتاي»

سقطتْ رصاصةٌ ثانيةٌ بجانبه وأوقعتْ ثالثةٌ سلّتَه. نظر جافروش فرأى أنَّ الطّلقات آتيةٌ من بعيد.

نهضَ وأخذ ينشدُ بقامةٍ مُستقيمةٍ وشعرُه يتلاعبُ به الهواءُ وقد وضعَ يديْه في حُزامه وتعلّقتْ نظراتُه بأفرادِ الحرس الذين يُطلقون النّار:

إنّ المرءَ قبيحٌ في نانتير.

فالحقُّ على فولتير

وغبيٌ في بالنيرو

فالحقّ على روسّو.

ثمّ التقطَ فأعادَ عليها الطّلقاتُ التي سقطتْ منها دون أنْ يفقدَ واحدةً وتقدّم مصدر النّار كي يأخذَ طلقاتِ ميّتٍ آخر.

هُناكَ أخطأتْه أيضاً رصاصةٌ فأنشد:

أنا لستُ كاتبَ عدل

والحقّ على فولتير

أنا عصفورٌ صغير

والحقُّ على روسّو.

لم تُفلحْ رصاصةٌ خامسةٌ إلاّ في أنْ تستدرَّ منه شيئاً في الإنشاد، فقال:

إنَّ الفرحَ طبعي

فالحقُّ على فولتير

والبؤسُ عُدّتي

فالحقُّ على روسّو.

كان جافروش المُستهدفُ بالرصاص يتلاعبُ به ويبدو وكأنّه يلهُو كثيراً. كانوا يُطلقونَ النّار عليه دون توقّف فيُخطِئونَه باستمرار وكان الجنودُ وأفرادُ الحرس يَضحكون. كان ينبطحُ ثم ينهضُ ويختفي في زاويةِ أحدِ الأبوابِ ويقفزُ فيختفي ويعودُ للظّهورِ ويفرّ ثم يعودُ فيردّ على الرّصاص بالبسماتِ وهو يُقلّب الموتى ويملأُ سلّتَه.

كان الثّائرون يتتبّعونهُ بأعيُنهم وهم يحبسونَ أنفاسَهم، فيرتجفُ المتراسُ بينما هو يُغني والرّصاصُ يُلاحِقُه. لكنّه كانَ أمهرَ منه ويلعبُ لُعبةَ مُخيفةً مجهولةً مع الموت.

ومع ذلك فقد أصابتْهُ رصاصةٌ في النّهاية فَشُوهدَ وهو ينْحني ثم يَسقُط.

صاحَ المتراسُ بأسره، لكنّ السُّقوطَ على الأرض كان بالنسبةِ للغلامِ بمثابةِ قُوّةٍ جديدةٍ يستعيدُها فلم يكدْ يُصاب حتى نهضَ وجلسَ والدّماء تسيلُ من خدّه، فرفعَ ذراعيْهِ في الهواءِ وتطلّع إلى مصدرِ الطّلقةِ ثم عادَ إلى الإنشاد:

لقد سقطتُ أرضاً

فالحقُّ على فولتير

وإنّني في السّاقية

فالحقُّ على...

لم يكمل فقد أوْقفتْهُ رصاصةٌ ثانية. وفي هذه المرّة سقطَ وجهُه على الأرض دون حِراك.

انطلقَ ماريوس إلى خارجِ المتراس فَتبعَهُ كومبيغير الذي نَقلَ سلّةَ الطّلقاتِ بينما نَقَلَ ماريوس الغلامَ. وعندما عاد ماريوس والغلامُ بين ذراعيْه كان وجهُ الإثنين مُغطّى بالدّم، فقد أصابت رأْسهُ رصاصةٌ عندما انحنى لالتقاط جافروش دون أنْ يَشعرَ بها.

نزعَ كورفايراك ربطةَ عُنقه ولفَّها حول جبهةِ ماريوس ووزّع كومبيغير طلقاتِ السلّة التي نقلَها على كلِّ مُقاتل، فأصبحَ لدى الجميع خمسَ عشرة طلقة.

لَزِمَ جان فالجان مكانَه فلم يُحرّك ذراعاً وعندما قدَّمَ له كومبيغير الخمس عشرة طلقةً العائدة له، أجابَ: «لا!». فقال في نفسِه: «هذا رجلٌ غريبٌ يجدُ طريقةً كيْلا يُقاتلَ في هذا المتراس.»

ضُمِّدتْ جراحُ المُصابين وصنَع بوسوييه وفيّي طلقات من وعاءِ البارود الذي عثرَ عليه جافروش. أمّا كورفايراك فقد وضعَ أمامَه بُندقيتين وثلاثَ غدّارات، بينما كان جان فالجان ينظرُ إلى الحائط المُقابل بصمت. وفي أحدِ الأدراج عثرَ بعضُ المُقاتلين على قطعٍ قديمةٍ من الخبز فحاولوا أكلَها، وتساءلَ ماريوس عمّا سيقولُه بعدَ قليلٍ الكولونيلُ البارون دي بونمارسي.

المعركةُ الأخيرة

فجأةً سُمِعَ صوتٌ صافٍ بين طلقتيْ مدفع فقال كومبيغير: «إنّه الظهر». لم تكد الإثنتا عشرة دقّة ترنّ حتى شُوهِدَ جنودٌ كثر يصلونَ من بعيد وهم يرتدونَ ملابسَ العمّال وقد استُدعوا دون شك لِهدْمِ المتراس، صاحَ انجولراس: «أنقلوا البلاطَ إلى البيتِ وليلازم نصفُ الرّجال البَنادقَ والنّصفُ الآخر البلاط!»

حُمِلَ البلاطُ ووُضِعَ أرضاً في أقلّ من دقيقتين، وكانتْ فوهات البنادقُ وحدَها تُطلّ عبرَ الجدران، وهي معدّةٌ للإنطلاقِ من أعلى لأسفل. وحينئذٍ قال انجولراس لماريوس: «نحنُ الرّئيسان. سوفَ أُعطي الأوامرَ الأخيرة في الدّاخل، أمّا أنتَ فابقَ خارجاً وراقبْ.»

في قاعةِ الكورنيث قال لِرجالِه: «نحن ستّة وعشرون مُقاتلاً فكَمْ بندقيّة عندنا؟

ـ أربعٌ وثلاثون.

ـ هناكَ ثمانٍ فائضة، إحتفظوا بها محشوّةً كالأخرى. ضعوا في أحزمتِكُم الحرابَ والغدّارات وليُلازِم عِشرون رجلاً المتراس، وستّة النّوافذ لإطلاقِ النّار على الجنودِ المتقدّمين.»

بعد ذلك التفتَ إلى جافير وقال له: «إنّني لم أنسكَ». ثم وضعَ غدّارةً على الطّاولة وأضاف: «ليحطِّمْ آخرُ خارجٍ من هنا رأسَ هذا الشّرطي!» ارتفعَ صوتٌ يسأل: «هنا؟» فأَجابَ: «لا! لا يَنبغي أنْ تختلطَ هذه الجثّة بِجُثثِنا، فَسَننْتهي منه في شارع مونديتور.»

لم يُحرِّكْ جافير إصبعاً لكنّ جان فالجان تقدَّم وقال لانجولراس:

ـ أأنتَ الآمر؟

ـ نعم.

ـ لقد شكرْتني منذُ لحظةٍ وها أنا بدوري أطلبُ شيئاً.

ـ ماذا؟

ـ أنْ أقتلَ هذا الرّجل بنفسي.

رفعَ جافير رأسَه فرأى جان فالجان وصدرتْ عنه حركةٌ خفيفةٌ ثم قال:

ـ هذا عدل.

أعادَ انجولراس حشوَ بندقيَّتـه وأجالَ ناظـريْه حولـه ثم سأل: «هَلِ الجميعُ مُوافقون؟» وبما أنَّ أحداً لم يقُلْ كلمةً واحدة فقد أضاف: «اتّفقنا». جلسَ جان فالجان إلى الطّاولةِ بجانبِ جافير وفي يدِه غدّارة، وفي هذه اللّحظةِ صاحَ أحدُهم على المتراس: «هَاهم الآن.» فصرخ انجولراس:

ــ الجميع الى الخارج!

خرجوا بأسرع ما أمكنَهم بينما صاحَ جافير في ظهرِهم: «إلى اللّقاءِ قريباً»



جَان ڤالجَان يقتَادُ جَاڤير

عندما وجدَ جان فالجان نفسَه وحيداً مع جافير، حلَّ الحبلَ الذي كان يَشُد السّجين إلى الطّاولة من وسَطجسمه ثم أشار له بالنّهوض فأطاع.

أمسكَ جان فالجان بظهرِ جافير وخرجَ من الحانة ببطءٍ وهو يدفعُ سجينَـه الـذي لم يكن يَقـوى على أنْ يمشيَ بِخطـواتٍ عريضـة. فرآه ماريوس يمـرُّ ويخـرجُ إلى شارع مونديتور وغدّارته في قبضته.

بعد أنْ سارَ جان فالجان بضعَ خطواتٍ وضعَ غدّارته تحت ذراعِه وسحبَ سكّيناً من جيبِه فَفَتَحها ثم . . قطعَ الحبالَ التي كانْت تُوثقُ عنقَ جافير وقدميْه ثم نَظَرَ إليه وقال: «أنتَ حُر.»

لم يكنْ جافير منَ الذين يُمكنُ إدهاشهـم بسُهولـة، فهـو يُسيطرُ عادةً على نفسِه لكنّه عند هذا الحدّ لم يعرْف ما يقولُ

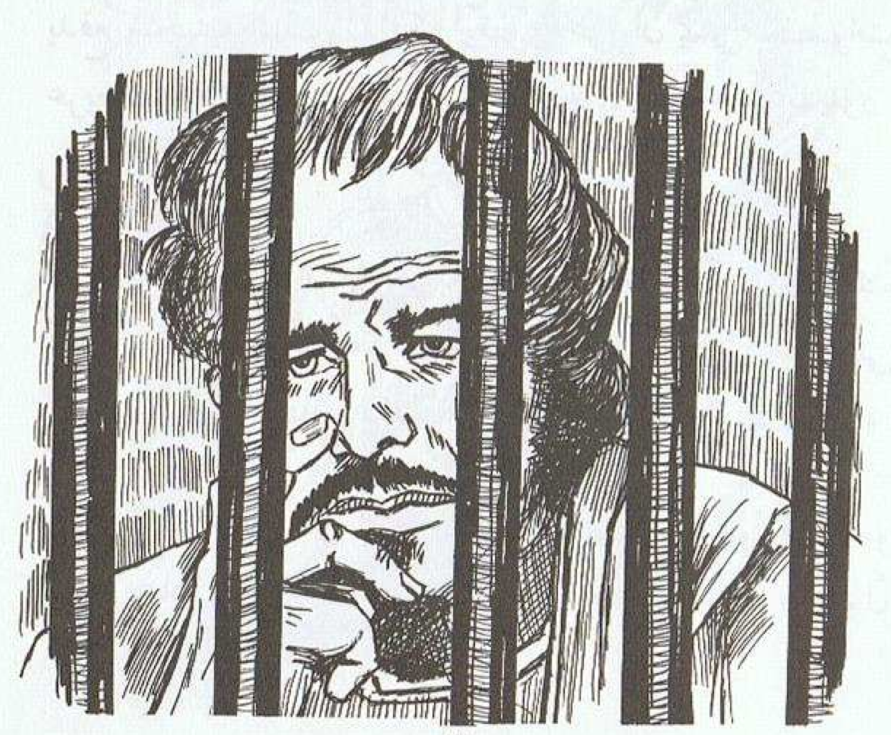
وبقيَ دون حركة. عاد جان فالجان فقال: «لا أعتقدُ أنّني سأخرجُ حياً من هنا. ومع ذلك إذا خرجتُ فإنّني أسكنُ باسم فوشليفان في شارع الرّجل المسلّح رقم ٧.»

كرّر جافير: «هل قلتَ فوشليفان، شارع الرجل المسلّح؟»

- رقم ٧.

فكرّر جافير الرقم بنصفِ صوتِه ثم أعاد ربطةَ عُنقِه إلى مكانها، وزرّر سُترتَه مجُدداً فاستدارَ وبدأ السّير.

تبعه جان فالجان بعينيْه وعندما اختفى الرّجلُ أطلقَ عياراً نارياً في الهواء وعادَ إلى المتراس فقال: «لقد قُضيَ الأمر.»



الأبطال

فجأةً هاجَمَ الجنودُ ورجالُ الحرس من عدّة شوارع بصفوفٍ مُتراصّة وأعدادٍ كبيرة، عدْواً وحرابُهم مُشرّعةً إلى الأمام.

دافعَ المتراسُ بطلقاتِه الأخيرة وقاتلَ ماريوس دونَ أنْ يحاولَ الإختباء.

داسَ الجنودُ على الموتى والجرحى، فسقطوا ونهضوا وتقدّموا شيئاً فشيئاً، خُطوةً خَطوة لكنْ بشكلٍ أكيد.

عندئذٍ استبسلَ الثوّار وأظهروا بطولتَهم وهم الذينَ لم يأكلوا ولَمْ يناموا منذُ أربع وعشرين ساعة، ولم يبقَ لديْهم سوى بِضعِ طلقات. إنّهم يشعرونَ بجيوبهم فارغةً من الطّلقات تحتَ أصابعهم، وأغلبهم مجروحٌ وقد لُفّتْ رُؤوسهم

أو أذرعهم بخرقٍ دامية وسالَ الدّمُ من ثقوبٍ في ثيابِهم، وأسلحتِهُم تقتصرُ على بنادقَ رديئةٍ أو حِراب.

التحمَ المُتقاتلونَ وتبادلوا الطّلقات الناريّة وطعنات الحِراب وضرباتِ اليد من بعيدٍ ومن قريب، من أعلى ومن أسفل، من كلِّ مكان، من سطوحِ المنازل ونوافذِ الحانةِ والأقبية. كانوا واحداً ضدّ ستين. قُتل فيّي وكورفايراك وجولي وأُصيب كومبيغير بثلاثِ طعناتِ حربة في صدرِه فلم يتسنَّ له سوى رُؤيةِ السّماءِ لآخرِ مرّة. أمّا ماريوس فقد أُصيبَ بعشرينَ جرحاً وغطّى الدّمُ وجهَه.

كان انجولراس هو الوحيدُ الذي لم يُصب فكانَ يُطلقُ النّارَ ويحشو الأسلحةَ دون راحة. لكنّ وسطَ المتراسِ انثنى وتساقطَ البلاطُ من علوٍّ بتأثيرِ طلقاتِ المدفعِ فصعدَ الجنودُ وقفزوا.

عندئذٍ استيقظَ حُبُّ الحياةِ المُظلم عندَ بعضِ الثّائرينَ فلم يشأ العديدُ منهم الموتَ أمامَ تلكَ الغابةِ من الحِرابِ والبنادق. كان فتحُ بابٍ لبرهةٍ واحدةٍ يَعني الحياةَ والحريّة، فشرعوا يَقرعونَ الأبوابَ والشّبابيك بقبضاتِهم وبأرْجُلهم وهم يُنادون ويَصيحونَ ويرجونَ لكنّ أحداً لم يفتح.

واجَه انجولراس وماريوس خمسَ مئة جندي وصاحوا: «من هنا. ليسَ هناكَ سوى بابٍ واحدٍ مفتوح.» أُغلقَ البابُ وراءَهم بقوّةٍ جعلتْ أصابعَ أحدِ الجنودِ الخمسةِ تعلقُ فيه.

بقيَ ماريوس خارجاً بعد أنْ كسرَ عيارٌ ناريٌّ ذراعَه فمرّتْ غيمةٌ سوداءُ أمامَ عينيْه وسقطَ. في هذه اللّحظةِ وعيْناه مُغمضتانِ شعرَ بيدٍ قويّة تُمسكُ به وتسنّى له أنْ يُفكّر: «لقد أُسرتُ وسوفَ أُعدمُ رَمياً بالرّصاص» ثم تلاشى كلُّ شيء بالنّسبة له بينما كان الثّائرون يتساقطون في الحانةِ الواحدَ تلو الآخر.

سَجين

كان ماريوس سجيناً لدى جان فالجان. لم يُقاتل الرّجل بل حملَ الجرحى إلى القاعةِ المخصصةِ للعناية بهم. لم يفعلْ سوى المساعدةِ ولم يشأ الرّصاص أنْ ينالَ منه..

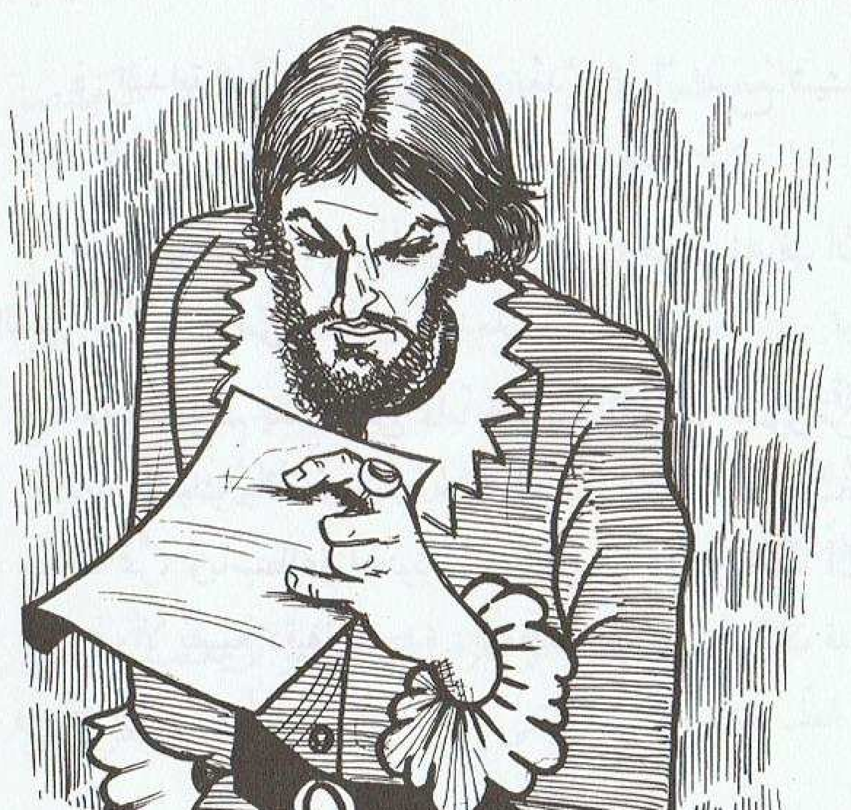
بدا جان فالجان أثناءَ المعركة غير مهتمّ بماريوس لكنّ عينيْهِ لم تُفارقه أبداً. وعندما طرَحَ طلقٌ ناريٌّ الشابَّ أرضاً ركضَ إليه وأخذَه بين ذراعيْه.

في تلكَ اللّحظةِ كانت المعركةُ أمامَ بابِ الحانةِ قد بلغتْ درجةً من العُنف تمكّن معها جان فالجان من عبورِ الشّارع دون أنْ ينْتبهَ إليه أحد. انعطفَ في الزّاوية فوجدَ نفسَه هناك مُختفياً للحظةِ عن كلِّ الأنظار. لكنّ الإبتعاد كانَ يعني الموت.

نظَرَ إلى كلِّ الإتجاهات فلم يرَ مَخرجاً مُمكناً ويَئِسَ لكنّه رأى

على بُعدِ بضعِ خُطواتٍ ما يُشبه مدخلَ قبوٍ حُطِّم ووُسِّع أثناءَ المعركة.

انطلقَ جان فالجان فدفعَ بالبلاط، وأزاحَ القُضبانَ الحديديّةَ ثم حملَ ماريوس على كتفيْه كما يَحمل الميّت ودخلَ إلى ما يُشبه بئراً كانتْ لحسن الحظّ قليلةَ العُمق فأغلقَ التّشبيكةَ الحديديّةَ وراءَه ثم نزلَ فوقَع على ركبتيْه وذراعيْه. وجدَ نفسَه في دهليزٍ طويلٍ وكانَ يَسمعُ بصعوبةٍ فوقَه المعركة الأخيرة في الكورنيث.



في مجاري باريس

كان جان فالجان في مجرورِ باريس. كان الجريحُ دونَ حراك فلم يدرِ جان فالجان إذا كان يحملُ في هذه الحفرة حيّاً أوْ ميّتاً.

في البدايةِ شعرَ أنَّه أعمى إذْ لم يعُد يرى أوْ يسمعُ شيئاً وكان كلّ ما يعرفه أنّ الأرضَ صلبةٌ تحتَ قدميْه.

مدَّ ذراعاً أتبعَهُ بالآخر فَلَمسَ الحائطمن الجهتين وعرفَ أنّ الممرَّ ضيّقٌ والأرضَ مُبتلّةٌ فقدَّم قدماً.

بعد لحظةٍ لم يعد أعمى تماماً فقد نَفَذَ قليلٌ من النّور من الحديد المُشبَّكِ وألِفَتْ نظرتُـه هذا القَبو: كان خلفَـه حائـطٌ وأمامه ممرٌّ، وباستطاعةِ الجنود أنْ يدخلوا كما دخـلَ فعليْه أنْ يُسرِعَ وألاّ يُضيعَ دقيقةً واحدة. التقطَماريوس الذي كان قد وضعَه أرضاً وبدأ السّير.

اضطرّ للتوقّف بعد خمسينَ خُطوة، إذ كان هناك ممرٌّ جديد يجتازُ القديم، فمن أينَ يمر؟ إلى الأمـام أم إلى اليمـين أم إلى اليسار؟

صَعدَ المنحدر وانعـطفَ يمنـةً وسـارَ بقـدرِ ما يستـطيعُ من سرعة. كان ذراعا ماريوس مُلتفّين حولَ عُنقِه وقَدَماهُ تتدلّيانِ وراءَه فأمسكَ الذّراعين بيدٍ وتبعَ الحائطَ باليدِ الأخرى. شعرَ بجدولٍ من الدّم يسيلُ عليه ويتسرّب إلى تحتِ ملابسِه، لكن كان هناك نفسٌ يتردّد على رقبتِه وبالتّالي حياة.

اتّسعَ الممرّ، لكنَّ جان فالجان لا يزالُ مُجبراً على أنْ يلتصقَ بالحائطكيْلا تُغطّى قدماهُ في الماء فكانَ يتقدّمُ بصعوبة.

إنّ المجاري تتبع نوعاً ما الشـوارع، لكنْ كان حينئـذٍ في باريس ألفان ومئتا شارع يبلغُ طولُها أربعةً وأربعينَ كيلومتراً فأخطأ جان فالجان في باديء الأمر إذِ اعتقدَ أنَّه تحت شارع سان دنيس وهو في مجرورِ مونمارتر الذي ينطلقُ منه مئةُ فرعٍ في كلِّ الإتجاهات.

سارَ دون أنْ يرى أوْ يعرفَ شيئاً وهـو لا يعتمـدُ إلاّ على الحظّ. كانَ الخـوفُ يَرقـى إليه أحيانـاً، فكيفَ سيخـرجُ من

هناك؟ وهل سيجدُ مخرجاً في الوقتِ المناسب؟ ألنْ يقع في إحدى الآبار؟ ألنْ يموتَ ماريوس بين ذراعيْه وهو نفسُه ألنْ يموتَ جوعاً؟

فجأةً ارتفعتِ مياهُ السّاقيةِ التي كانَ يشعرُ بها عندَ طرفِ قدمِه فبلغتْ ساقَه وانحدرَ المجرور. لماذا؟ هل سيصلُ الى السين في وَضَحِ النّارِ كي يُعتقل؟ في كلِّ مرّةٍ يصادفُ فيها مفترقاً، كان يمدّ ذراعيْه فيقيسُ عرضَ هذا الشّارع الأرضي الجديد ويختارُ الأعرض.

وفي لحظةٍ ما، عرف أنّه قد تركَ باريسَ الصّامتة، باريسَ التمرّد وأنّه قد دَخل تحتَ باريسَ الحيّة حيثُ تسيرُ العربات.

مضتْ عليه نصفُ ساعةٍ وهو يسيرُ دون أنْ يُفكر بالرّاحة، عندما رأى فجأةً ظلّه في نورٍ أحمرَ فالتفتَ ورأى خلفه في قسمٍ من الممرّ الجديد الذي سلكَه ثمانيةَ أو عشرةَ أشكالٍ سوداءَ مُستقيمة مُخيفة بدتْ له جدّ بعيدة.

السَيرُ تَحتَ الأرض

في ليلِ السّادس من حزيران تلقّتِ الشرْطة أمراً بمنعِ المتمرّدينَ من الهرب في المجارير فنزلتْ إليها ثلاثُ مجموعاتٍ من رجالِ الشّرطة مُسلّحينَ بالبنادق والهراوات. . كانتِ المجموعةُ الأُولى هي التي رآها جان فالجان تَتّجهُ نحوه آتيةً من مجرورٍ صادَفَه جان فالجان في طريقِه فظنّه أضيقَ من ذاك الذي سَلَكَه .سمعَ الشرطيّون وقعْ أقدامٍ وتطلّعوا في الضّباب إلى الجهةِ التي بدتْ تلكَ الخطوات قادمةً منها.

كانتْ دقيقةً مرعبةً بالنسبة لجان فالجان. ولحسنِ الحظّ فقد رأى مصباحَ رجالِ الشّرطة دونَ أنّ يردّه فتوقّف وانبطحَ مُلاصقاً للحائط.

أصغى رجالُ الشّرطة فلمْ يسمعوا شيئاً ونظروا فلمْ يروا شيئاً كذلك فظنّوا أنهم قد أخطأوا وأنّه لم تكنْ هناك ضجّةٌ

ولم يكنْ أحد وأنّه من غيرِ المفيد أنْ يذهبوا إلى أبعدَ من ذلكَ المكان لأنّ في ذلك إضاعةً للوقت وأنّ عليهم أنْ يصعدوا حتى المجاريرِ الواقعةِ تحتَ شارعيْ سان دنيس وسان ميرّي حيثُ احتدمَ القتال. ابتعدوا وضاعَ وقعُ خُطاهُم في اللّيل.

استأنفَ جان فالجان سيرَه الذي أصبحَ أكثرَ فأكثرَ صُعوبة. كانتِ المجاريرُ بعلوّ قامةِ رجل. ولكيْ تستطيعَ حملَ ماريوس على ظهرِه دون أنْ يجرحَه بالحائط، كان عليه أنْ يمشي وركبتاه مطويّتان وأنْ يخوضَ غالباً في المياهِ المدهنة. استبدّ به العطشُ والجوعُ فبدأ يشعرُ بالتّعب.

بدا له أنّ تنفُّسَ ماريوس يَضعف فأمْسكه بطريقةٍ لا تُضايق صدرَه وشعرَ بحيواناتٍ هي دون شكّ جُرذان تمرُّ راكضةً بين ساقيْه.

كانتِ السّاعة حواليْ الثالثة عندما بلغَ مجروراً عرضُه متران ونصف وارتفاعُه أكثرمن متريْن . تَعجّبَ في باديءِ الأمر لأنّه تمكّن أنْ يمشي دون أنْ يلمسَ الحائط برأسِه لكنّ سؤالاً طرح نفسَه : هل يصعدُ أمْ ينزل؟ فكّرَ أنَّ عليه الآن أنْ يستعجلَ بلوغَ السين أيْ أنْ ينزل، فانعطفَ إلى اليسار.

كان تَعِباً جداً فتوقّفَ في مكانٍ مُضاء ووضعَ ماريوس على الأرض الجافّة كما يضعُ أخٌ أخاهُ الجريح. كانتْ عينا الشاب مُغمضتَيْن وشعرُه مُلتصقاً من الدّم ويداه متدلّيتين كما لو كانتا ميتتيْن، وقميصُه داخلاً في جُروحِه التي تحيك بها جوخَ الثّوب. أدخلَ جان فالجان يدَه تحتَ القميص وبحثَ عن القلب فوجدَه لا يزالُ ينبض. عندئذٍ مزّقَ العجوزُ القميصَ وضمّدَ الجروح. ثمّ انحنى على ماريوس في شبهِ الضّوء هذا وكان لا يزالُ فاقدَ الوعيِ يتنفّسُ بصعوبةٍ فنظرَ إليه بِكراهية.

الحفـرَة

عثرَ جان فالجان في جيوبِ ماريوس على محفظةٍ فتحَها فقرأ السّطورَ الأربعة التالية:

«إنّني أُدعى ماريوس بونمارسي. فَلْتُحمـلْ جُثّتـي إلى دار جدّي السيد جيللينورماند شارع بنات طريق الآلام، الرقم ٦ في الماريه.»

ردّ جان فالجان هذا العنوان ثم أعـادَ المحفظـةَ إلى جيْبِ ماريوس. . . وقد عادتْ إليه قُوَّته فَحَمِلَ ماريوس ثانيةً على ظهره ووضعَ رأسَ الشابّ على كتفه الأيمن ثم عادَ النّزول في المجرى.

كان سيرُ العرباتِ فوقه يهزُّ الجدرانَ لكنّه لم يكن يعرفُ في أيِّ حيٍّ من المدينةِ يمر.

فجأةً شعر أنّه يغوصُ في الماء إذ لم يعدْ هناكَ حجارةٌ تحت

قدمْيه بل شيءٌ رخوٌ سميك. دخلَ قعرَ المجرور في الأرضِ في قسمٍ من طوله وأدركَ جان فالجان أنّه إذا استمـرّ فسيُخاطرُ بالموت غَرَقاً في المياه الوسخة.

لكنْ ما العمل؟ هل يعودُ أدراجَه؟ وإلى أينَ يذهب؟ هل ينتظر؟ ولكن أَلِيَموتَ تعباً أو جوعاً؟ . . .

تقدّم جان فالجان فبلغَ الوحـلُ ساقيْه ثم ركبتيْه. استمرّ حاملاً ماريوس بينْ ذراعيْه الممدودتين.

بلغَ الوحلُ حزامَه والماءُ صدرَه ولم يعدْ يستطيع التّراجع. كان وزنُ الرّجلين أثقلَ ممّا ينبغي فقد يمرّ شخصٌ بمفرده أمّا إثنان فلا. ومع ذلك فقد تقدّم جان فالجان وهو لا يزالُ يحملُ ذاكَ المحتضر الذي ربمّا قد فارقَ الحياة.

ارتفعَ الوحلُ أيضاً فشعرَ الرّجـل العجـوز أنّـه سيتـوقّف وألقى برأسه إلى الـوراء ليتمكّن من التنفّس ثم بذلَ جُهـداً يائساً ودفع بِرِجْلِهِ إلى الأمام ربمّا للمرّةِ الأخـيرة. اصطدمـتْ بشيءٍ صلبٍ فتقدّم خطوةً وعرفَ أنّ بلاطَ المجرور عادَ للظّهورِ فَصعدَ ونَجا.

لكن عندَ خُروجه من الماء لامستْ رِجْلُهُ حَجراً على ركبتيْهِ وبقيَ هكذا لبعضِ الوقت.

عادَ إلى النّهوضِ والوحلُ يُغطِّيه من رقبتِه حتى قدميْه، بارداً كالثلج تحتَ هذا المُحتضر الذي استمرّ بِحَمْلِه.



فُتحةٌ مُغلقةٌ

إذا لم يكُن جان فالجان قد تركَ حياتَه في المياه السّميكة، فإنّه كان يبدو وكأنّه قد تركَ فيها قواه. كان التّعبُ قد تملّكه لدرجةٍ كان يضطرُّ معها إلى التوقُّف بعدَ كل ثلاث أو أربع خُطواتٍ فيستندُ إلى الجدار.

أغمضَ عينيْه ومشَى يائساً مئة خطوة دون أنْ يتنفّس إلاّ بِشِقٍّ النّفس فوصلَ فجأةً إلى حائط. رفعَ عينيْه فرأى أمامَه في نهايةِ الممرّ نُوراً بعيداً جداً.

لم يكنِ الضّوءُ هذه المرّة النّورَ المُخيفَ لِمصباحٍ يحملُه الشّرطيون بل نوراً أبيض. إنّه نورُ النّهار. لم يعُد جان فالجان يشعرُ بالتّعبِ أو بثقل ماريوس بَلِ استعادَ قُوّتَه وركضَ أكثر ممّامشى. تعاظمَ الضّوء وكان صادراً عن نافذةٍ على عالمِ

الأحياء. لكنّها للأسف كانتْ مُغلقةً بفتحةٍ مُشبّكةٍ ولم يكنْ هناكَ مفتاحٌ لها.

وراءَ الفَتحةِ كان هناك الهواءُ الطّلقُ والنّهرُ والنّهارُ والأرصفة، وعلى اليمين جسرُ ايينا وعلى اليسارُ جسرُ الأنفاليد. إنّ المكانَ قد يكون صالحاً لِانتظار اللّيل.

كانتِ السّاعة تُقارب الثّامنة والنّصف مساءً، وضوءُ النّهار يضعف، فمدّدَ جان فالجان ماريوس على الارض ثم سارَ نحو غطاءِ الفتحة فأمسكَ بِقُضبانِها الواحِد بعدَ الآخر وشدَّها بكلّ قُواه فلم تتحرّك. لم تكنْ هناك طريقةٌ لِفَتح الباب.

هل ينبغي أنْ ينتهي هنا؟ ما العمل؟ هل يعود إلى الوراء من ذلكَ الطّريق المُخيف؟ كلاّ فلم يَعُدْ يقوى على هذا. لقد قُضِيَ الأمر، وكلّ ما فعله جان فالجان كان عديمَ الجدوى فاللّه ضدّه.

أدارَ ظهرَه إلى الباب وارتمى على البلاط إلى جانبِ ماريوس الذي كان لا يزالُ فاقدَ الحركة، ثم أحنى رأسَه نحو ركبتيْه.

فجأةً أمسكتْ يدٌ بكتفِه وحدّثه صوتٌ مُنخفض قائلاً:

«ألحصّةُ مُناصفة» انتصبَ رجلٌ أمامَه مُمسكاً حذاءَه بِيُسراه فعَرفَه جان فالجان على الفور: إنّه تيناردييه.

انقضتْ لحظةُ انتظار رفعَ بعدَها تيناردييه عيناهُ إلى عينيْه مُحاولاً أنْ يرى الرّجل الذي يُواجهَه في الظلّ بشكلٍ أفضل فلم يتعرّفْ عليه وقال:

ـ ما الذي ستفعلُه كي تخرج؟

لم يُجب جان فالجان فتابَع تيناردييه قائلاً: ومع ذلك يجب أنْ نذهبَ من هُنا.

ـ هذا صحيح.

حسناً فلنتقاسم مُناصفة.

ـ ما الذي تُريدُ أنْ تقولَه؟

ـ لقد قتلتَ الرّجل وهذا حسن. أمّا أنا فلديّ المفتاح.

دلّ تيناردييه بإصبعه على ماريوس ثم قال: «إنّني لا أعرفُك لكنّني أستطيعُ مُساعدتَك فلا بدّ أنّكَ صديق...»

بدأ جان فالجان يفهم. أمّا تيناردييه فقد تابعَ حديثَه:

ـ أصغِ إليّ يا رفيق. إنّك لم تقتُل هذا الرّجلَ دون أنْ

تنظرَ إلى جيوبِه فأعطني النِّصفَ أفتحُ الباب.» ثم سحبَ مِفتاحاً ضخماً من تحتِ قميصِه وأكمل: «ما هذا يا رفيق؟ ماذا فعلت للخروج من الدّهليز؟ أنا لم أجرُؤ على مُحاولةِ عبورِه. أُف! إنّ رائحتَكَ كريهة!» إنّني أطرحُ عليكَ أسئلةً فلا تُجيبُ بشيء... لكنّ صَمْتَكَ لا يُغيرُ شيئاً: لقد أسأتَ مُعاملةَ هذا السيّد بعضَ الشّيء، وتـريدُ الآنَ أنْ تُخفِيَهُ في مكانٍ ما. أو يلزمُكَ بالأحرى النّهر فهو أكثرُ أمْناً من المجرورِ ولنتقاسم لقد رأيتَ مفتاحي فأرني النّقود.

أكثرَ تيناردييه من الكلام لكنْ بصوتٍ مُنخفض جداً، ومن وقتٍ لآخر كان يضعُ أصبعَه على فمِه قائلاً: «صَهْ!» فيتساءلُ جان فالجان عن السّبب ثم يظنُّ أنَّ هنـاك سارقين آخـرين مُختبئين غـير بعيدٍ في المجـرور وأنَّ تينـاردييه لا يريدُ أنْ يُشاركهم.

بحَـثَ تينـاردييه في جيوبِ ماريوس ثمّ في جيوبِ جان فالجان نفسَه دون أنْ يسألَه رأيه فقد كان جان فالجان يريدُ قبلَ كُلِّ شيء أنْ يبقى مُديراً بظهره إلى النّورفلم يَعْثُر إلاّ على ثلاثينَ فرنكاً فقال: «هذا كلُّ شيء. لقد قتلتَه من أجلِ القليل.» ثمّ

استولى على كلِّ شيء مُتناسياً ما قاله عن «المُناصفة» وأخـرجَ مُجدّداً المفتاحَ من تحتِ قميصه قائـلاً: «الآن وقـد دفعـتَ يا صديقي» فَبِوُسْعِكَ أنْ تخرُجَ.»



عندَ السَّيد جيللينو رمَاند

عندما وجد جان فالجان نفسَه خارجاً من جديد، تنفّس الهواءَ الطّلق اللّيلي بعُمق ثم وضعَ ماريوس على ضفّة النهر وتناولَ شيئاً من الماء في يده ورشّ على وجهِه بِضعَ قَطراتٍ منه. انحنى مجُدداً نحو ماريوس عندما شعر بأنَّ شخصاً ما وَراءَه، فالتفتَ ورأىَ رجلاً طويلاً يُمسكُ سلاحاً بيُمناه وهو ينْظر إليه. عرفَ جان فالجان في ذلك الشّخص جافير الذي أطاعَ الأوامرَ الصّادرة وذهبَ إلى الأرصفةِ. وهناك رأى تيناردييه فَتبِعَهُ ورآه يختفي في المجرور... انتظرَ خروجَه لكنّ تيناردييه وَجدَ مَنْ يبعثُ به إليه لِيُشغله.

لم يعرفْ جافير جان فالجان لوساختِه والتّعب البادي على وجهه، فسأله بصوتٍ جاف:

ـ مَنْ أنت؟

ـ أنا.

ـ مَنْ أنت؟

ـ جان فالجان... ثم أضافَ. إنّني في قبضتِكَ يا جافير، فمنذُ هذا الصّباحِ أنا في الحقيقة سجينُك، ولم أُعطِكَ عنواني كيْ أُحاول الهرب. إعتقلني. لكنْ إسمحْ لي فقط.. فلا يزالُ لديَّ أمرٌ أفعلُه.

بَدا جافير وكأنّه لم يسمعْ، فنظرَ إلى جان فالجان بعينيه المستديرة كعينِ الطّائر ثمّ استقامَ على ساقيْه وثبّت سلاحَه في يده وطرحَ هذا السّؤال: «ماذا تفعلُ هناك؟ ومَنْ هو هذا الرّجل؟»

ـ إنّني أُريدُ أنْ أُحدّثك عنه فافعل بي ما تشاء. لكنْ ساعدني أوّلاً على نَقْلِهِ إلى دارِه فأنا لا أطلبُ منك آمراً آخر.»

اعتدلَ جافير في وقْفتِه ثمّ نظرَ إلى الرّجل المُلقى أرضاً وقال بصوتٍ مُنخفض كمن يكلّم نفسَه: «لقد كان في المتراس، فهو مَنْ يُدعى ماريوس.»

ـ إنّه جريح.

ـ إنّه ميّت.

ـ كلا لم يَمُتْ بعد.

ـ أَحَمَلْتَهُ إذنْ من المتراس إلى هنا؟

ـ أنتَ ترى جيداً... عنوانُه في الماريه، شارع بنات درب الآلام الرقم ٦. نظرَ جافير إلى محفظةِ ماريوس وبعد بُرهةٍ حُمِلَ في عربةٍ ونُقلَ إلى دار جدّه جيللينورماند. ثم انصرفَ جافير وجان فالجان فقال الأخير:

ـ دَعْني أفعلُ شيئاً آخر.

ـ ماذا؟

ـ أعودُ لحظةً إلى داري وبعدَها تفعل بي ما تَشاء.

صمتَ جافير ثم أجاب: «حسناً.»

النهايـة

«تركَ جافير جان فالجان يصعد، وعندما وصلَ إلى غرفته نظر من الشبّاك فرأى أنّ جافير قد ذهبَ إلى غيرِ رجعة.

في دار السيد جيللينورماند، عُولج ماريوس كولدٍ حبيبٍ تَمّ العثورُ عليه أخيراً، وأتتْ كوزيت لزيارته فلم يكتفِ الجدّ بالسّماح بالقران لكنّه سهّله.

أعطى جان فالجان للشابّين كلَّ ما بقيَ لديْه من الستمائة ألف فرنك التي كسبها عندما كان يُدعى السيد مادلين لكنّه لم يَبُحْ لماريوس بشيءٍ عن ماضيه فاعتقدَ هذا أنّه قد قتلَ جافير ولم يدرِ أنّه قد أنقذَه. تساءَلَ عن مصدرِ كلّ هذا المال، وشيئاً فشيئاً دفعَ كوزيت إلى عدم الإكثار من التردّدِ على العجوز الذي جُرحتْ عاطفتُه فاعترف بأنّه أمَضى تسعةَ عشر عاماً في

السجن. عندئذٍ منعَ ماريوس زوجتَه من الإستمرار في زيارة سجينٍ قديم.

لكنّ تيناردييه كان قد اقتفى أثر جان فالجان على الأرصفةِ وعرفه، فأَعلمَ ماريوس بالحقيقةِ كلّها، طمَعاً بالمال، أسرعَ هذا الأخير مع كوزيت إلى شارِع الرّجل المسلّح، ليطلبا الصّفحَ من العجوز ويَرْجُواه أنْ يأتيَ فيسكن عندهما لكنّ الوقتَ كان قد فات ومات جان فالجان بين ذراعيْهما.


قصص
عالمية
جافروش